بيتر بالانجيو

الموت في الشمس

ترجمة سمير عبد ربه

الموت في الشمس

تأليف
بيتر بالانجيو

ترجمة
سمير عبد ربه

هنـــداوي

الموت في الشمس

بيتر بالانجيو

Dying in the Sun

Peter K. Palangyo

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شيت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٥ ٣٥٠٣ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ١٩٦٨.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠٠٢.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ سمير عبد ربه.

١

عند النهايةِ الجنوبيةِ من القرية كانت الظلالُ المائلةُ تُعانِق الواديَ المتعرِّج، فاستطاع تانيا أن يخمِّن الوقت، وكان عليه أن يُواصلَ السير سبعةَ أميالٍ أخرى.

مسَح العَرق المتصبِّب فوق وجهِه بأكمامِ قميصِه الممزَّقة، فتسلَّلَت قطراتٌ من العَرق إلى عينَيه وفمه، ثم بصَق بغضَب وراح يفُكُّ عقدةَ المنديلِ القذِر من فوق رقبته وهو يلعَن العالم والحياة وأولئك المُتخَمين في عرباتهم الرشيقة.

أصابه اليأسُ فسقَط فوق الحشائشِ الساخنةِ مغشيًّا عليه ولم يعُد يشعُر بالدم المتدفِّق من جرحه فوق بنطالِه الممزَّق.

كانت حوالي الخامسة وما تزال الشمسُ حارقةً ولم يكن تانيا مدركًا لعُريه شأن كل المنسحقين الذي يعيشون فرادى ولا يُحسُّون بالعُري ... حاول أن يتجنَّب حرارةَ الشمس فعاودَتْه مشاعرُ الألم وأحسَّ بأحشائه تتلوَّى من الجوع، وكأنه في حُلمٍ أو كابوسٍ حتى أصبح حلقُه جافًّا ولم يعُد بمقدوره ابتلاعُ شيء ... تطلَّع حوالَيه فأدركَ أنه فقَد حقيبتَه التي تحتوي كلَّ ما يمتلكُ في الحياة، بالإضافة إلى إنجيل سانت جون المكتوب باللغة السواحلية والذي لم يقرأه بعدُ، كان الإنجيل يمثِّل قيمةً كبيرةً بالنسبة له ليس لشيء سوى أنه هديةٌ من أمه ... كانت بالحقيبة أيضًا بعض النقود القليلة وبعض لُقَم الطعام التي تكرَّمَت عليه بها سيدة.

أصبح ظلُّه أكثر طولًا، وبالنظر إلى الرصيف المؤدي إلى قريته تراءى له الطريقُ كالأفعى الملتوية التي تلاشى ذيلها في الأفق المليء بالأعشاب الساخنة. حاوَل التخفيفَ عن نفسه قائلًا: يجب أن أصل إلى قريتي قبل أن يموت أبي!

ظلَّت الذكرياتُ تُلاحِقه وهو يُجاهِد من أجل الوصول، فأبصَر أمه حين قالت له ذاتَ يومٍ وهي تنحني فوق الأرض وتصحن الفول: إن بذرتك متعفِّنة كما أنك تعاني مرضًا خطيرًا.

لم يكن تانيا يعتقد في مثل ذلك الكلام، لكنه تذكَّر طفولتَه ووجهَه الدميم وساقه المتقوِّسة ورأسه المليء بالندوب ... لم يكن تانيا سريعَ البديهة، وكان الأولاد يسخَرون منه ويَدْعونه بصاحب الرأس البرميل، وهكذا عَرف العُزلة ولم يعُد يلعب إلا مع أخته التي راحت بدَورها تدعوه بالبنت ... كانت أختُه أمينة أقربَ الناس إليه وكان يُحبها، ولم يحدُث أن أطلقَت عليه صاحب الرأس البرميل إلا بعد عشر سنواتٍ من اللعب معًا، وحينئذٍ ألقى عليها بحجرٍ كبيرٍ في غضب فكسر قدمَيها، وكان هذا الحدث سببًا في تغيير حياته إلى حدٍّ كبيرٍ مما جعله يختفي في القرية ثلاثةَ أيامٍ عَرفَ خلالها التعَبَ والعجزَ عن مواجهة أي شيء، إلى أن وجدَه ماسينا العرَّاف في حالةٍ شديدةٍ من الجوع والإغماء وهو يلفُّ رقبتَه بمنديلٍ يُخفي تحتَه محاولةً للانتحار.

تذكَّر تانيا ابتسامةَ الاعتذارِ فوقَ وجهِ أختِه وهي راقدةٌ فوقَ أرضيةِ الكوخ مربوطة القدمَين في عمودٍ وضعَه ماسينا لمثل هذه الأغراض.

تذكَّر كلماتِ أمينةَ الأخيرةَ النابعةَ من أعماق روحها: «أنتَ لستَ مخطئًا يا أخي، لكنك تختبئ وراء قُبحِك ... إنني آسفةٌ جدًّا، وأرجوك أن تغفر لي.»

انحنَى إلى جوارها متأثرًا، وألقى برأسه فوق وجهها، ثم بكَى بمرارةٍ دون أن يقولَ شيئًا، ودون أن تتوقف الدموعُ الغزيرةُ التي ظلت تتدفَّق فوق وجنتَيه الكبيرتَين، ثم شعَر بفجوةٍ بينه وبين أخته، وأبصَرَها نقيةً كالوادي الذي رآه ذات يومٍ في حُلمه.

كانت أختُه في ذلك الوقت تتَّسِم بهدوءٍ مخيفٍ وكان ماسينا دائمًا يردِّد: «إن فترةً من الهدوء تنتاب المرءَ قبل موته هي بمثابة السلوى الأخيرة.»

زحف تانيا فوق ركبتَيه ولوَّح بإحدى يدَيه فوق وجه أمينة لطرد الذباب بينما ضغَط بيده الأخرى فوق الأرض وكأنه يقول لها: «لا داعي للاعتذار.»

لاحت أمامه صورةُ جدَّته التي ترى بعينٍ واحدةٍ حين سارت بهدوء وهي مُثقَلةٌ بأحزانها وشيخوختها ثم رفعَتْه فوق حَجْرها، وراحت تهزُّه برقَّة حتى غلبَه النوم، ولم يستيقظ إلا على صوت الجيران والأقارب الذين ظلوا يتطلعون إليه بنظراتٍ ملؤها الاتهامُ والشفقةُ في آنٍ واحد.

ساد الحزنُ داخلَ كوخ العائلة وخارجَه، وعلَت في الأفق صرخاتُ النسوة العجائز اللاتي وجدن الفرصةَ للبكاء على أبنائهن وأقربائهن الموتى.

كانت أختُ أمينة، ذاتُ الأعوامِ الثلاثة، تضغط فوق كتف جدَّتها وتقول: «ماما ... كم من الوقت ستبقى أمينةُ هنا ... أما زالت أمينةُ نائمة؟!»

داعبَتْها الجدَّة برقَّة ولم تقُل شيئًا، وسرعانَ ما ظهر الحزن واضحًا فوق وجهها.

لم يستطع تانيا بعد استيقاظه أن يفهم شيئًا وسط صُراخِ وعويلِ النسوةِ العجائز، وحين حاول جاهدًا كان كل شيءٍ كقوسٍ قُزَح بلا ملامحَ محدَّدة ... حاوَل أن يتذكَّر ذلك المشهدَ جيدًا، لكنه لم يستطع النبشَ في ذاكرته أكثر من ذلك.

كان محطَّمًا كالقضيبِ المعدنيِّ الضعيف، وها هو ينظر دون أن يرى ويتصنَّت دون أن يسمع، لكنه استطاعَ فقط أن يتذكَّر مشهدَ المقبرة الذي جال بخاطره ملايينَ المرات حين كانت أمينةُ ملفوفةً في جلد الماعز المبلَّل، ويقومون بإسقاطها في الفتحة مع غصنٍ من النبات، وقد أقاموا سياجًا بالقرب منها حتى لا يَحفِر أحدٌ مكانها.

كانت تلك هي الذكريات التي اجتاحت تانيا وهو راقدٌ فوق الأرضِ القذِرة التي ابتلعَت أمينةَ منذ عشر سنوات، تناوَل حفنةً من التراب في يده، ثم وضعها في اليد الأخرى تسيلُ بين أصابعه لتعودَ إلى الأرض مرةً ثانية، وكانت أشعة الشمس هناك فوق التلال، وقد أصبحَت الحرارةُ أقلَّ حدَّةً حتى لم يعُد يؤرِّقه العطَش رغم أن حلقه كان جافًّا ما يزال ... حاوَل النهوضَ لمواصلةِ السَّير لكن مفاصله كانت تؤلمه، وظل يترنَّح قليلًا في سَيره، فبدا ظله طويلًا، وراح يضحك ضحكاتٍ غريبةً ويقول لنفسه: «إن ظلِّي هذا هو الصديقُ المخلصُ الوحيدُ الذي لم أصادِف مثلَه في حياتي.»

مضى في سيره بخطواتٍ أكثرَ حدَّة كحيوانٍ يُجبرونه على السير، كان يترنَّح قليلًا وهو يصعَد حافةَ تلالِ القريةِ الجنوبية، ظل ينظُر إلى أسفلَ مستمتعًا برؤية القرية من فوق التلال، القرية بدونِ أهلها، بحماقاتهم، وأمراضهم، ومعاناتهم، وموتهم المحقَّق.

تذكَّر قول أمه منذ زمنٍ بعيد: «سيأتي يوم يعيش فيه الناسُ سُعداء وأصحَّاء، ولن يموت إلا الكبار.» كان صغيرًا ولم يستطع وقتَها أن يفهم ما قالته أمه، التي ماتت وهي تلِد في موسم الحصاد التالي، وتمنَّى لو أنها عاشت لتُفسِّر له ما قالت.

تسلَّق الانحدارَ الأخيرَ فأصبَح في مواجهة قرية «كاشا وانجا» الجميلة، وكان غروب الشمس يُصوِّب أشعَّته الذهبية فوق القرية وكأن فتاةً شريرةً ترقُص الكانجا أمام المراهقين، «كاشا وانجا» تلك القرية الشهيرة التي تُطوِّقها الجبال، وليس لها سوى طريقَين للدخول

أو الخروج؛ أولهما من الشمال حيث يفتح الشيطانُ أمعاءَها للجلَّادين وغَزو الغرباء والأمراضِ الكريهةِ القادمةِ مع الرياح والفيضانات القديمة، والطريق الثاني من الجنوب حيث يفتحُ الله طريقًا للهرَب من كل الأحزان والمصائب.

ذاب قلبُ تانيا وهو يتطلَّع إلى القرية من أعلى، وتبدَّت له الأشجارُ أكثَر طولًا وغموضًا وكأنها أرادت أن تؤكِّد نفسَها قبل غروب الشمس ... كان دخانُ العَشاء المُنبعِث من الأكواخ يُداعِب انحسارَ الضوء بحياءٍ عند جوانب التل واللونُ البرتقاليُّ يتقدَّم بحذَر نحو أركان القرية الشرقية ... ظل تانيا يتنفَّس بشدة ليملأ رئتَيه القويتَين بهواء القرية الناعم وكان قلبُه يدقُّ بشدة كما تنجذبُ روحُ رجلٍ نحو امرأةٍ فاتنةٍ وغريبة.

كانت بدايةُ المساءِ حيث تعود الماشيةُ إلى القرية، وتخور من أجل صِغارِها الذين يصرُخون خوفًا من فزَع الليل، وحيث الأمهاتُ مشغولاتٌ بأواني الطهي لملءِ بطونِ الرجالِ فيُصبِح من اليسير رؤيةُ النارِ المشتعِلة متفرقةً عَبْر القرية مع نعيقِ البوم الذي يجلبُ الموت ... استطاع تانيا أن يستمع إلى البكاءِ الصادرِ من الرسالة التي تسلَّمها، وراح يتهادى في مشيته ببطء ولامبالاة حتى وصل إلى باب البيت، وقال: هودي!

كانت هودي، أختُه الصغرى، أوَّل من سمعه، ولم تُخطئ في التعرُّف على صوتِه، فألقت بعُنقودِ الموز الذي قطعَته للعَشاء، وهُرعَت إلى الخارج، ثم صرخَت قائلة: «تانيا في البيت ... تانيا في البيت.» ... ساد هَرْجٌ ومَرْجٌ كبيرٌ بين أهل البيت، وسارع كلٌّ من أخوَيه وأخته الأخرى إلى الخارج حتى التصقوا بباب الكوخ، وهتَفوا: «مرحبًا بك يا تانيا.» ثم جذَبوه إلى الداخل ليعبُر الباب إلى دفءِ الكوخ المليء بالدخان.

تقدَّم نحو جدَّته التي تسمع وترى بصعوبة، وركع إلى جانبها، فقالت: «ابني ... اقترِبْ أكثر حتى أشعُر بك.»

دنا منها حتى لامسَها فاستطردَت: «أمُّك لم تعُد ترى جيدًا.»

جلس تانيا بينها وبين بقايا النار المنطفئة التي كانوا يُعِدُّون عليها العَشاء، وبالنظر حوالَيه أبصَر ظلًّا مُشِعًّا فوقَ الحائطِ المصنوع من الأعشاب يصعُب تحديدُ شكله، وكانت أختُه وأخواه الواقفون حواليه في هدوء وكأنهم يراقبون ميلاد أحد الماعز.

تحسَّسَت أم تانيا بيدها الخشِنة المليئةِ بالعِظام وجهَ تانيا ورقبتَه وأكتافَه كما يتحسَّس الطبيبُ جسدَ مريض، ثم تنهَّدَت بعمقٍ وسالت الدموعُ فوق وجهِها القديم ... خفَض الحاضرون رءوسَهم كما يحدُث في الصلاة، وقالوا: «هل مات يا أمي ... هل مات الأب؟» فراح تانيا يسأل عن أبيه.

٢

شخصٌ ما كان قد أخبَره في المدينة بأن والدَه مريض، ويُوشِك على الموت، ويتمنَّى رؤيةَ ابنِه ليُبارِكه ويخلِّف له شئون العائلة، فسارع تانيا — دون تفكيرٍ أو اهتمامٍ كبير — ببَيع البنطلونَين الوحيدَين اللذَين يملكُهما، ثم بلا إدراكٍ أو اهتمامٍ أيضًا جازَف بفقد ستين شلنًا في الشهر أجر وظيفته، بعد أن رفض رئيسُه الموافقةَ على الإجازةِ لزيارةِ والدِه المريضِ قائلًا: «ليس ذنبي أن والدك يُوشِك على الموت؛ فإما وظيفتك أو وجودك بجوار سرير أبيك.» ثم ألقى تحتَ قدمَيه بآخر شلنَين هما كلُّ ما تبقَّى له بعد الذي سحَبه من راتبه مقدمًا، ظل تانيا يتساءل عما إذا كان والدُه قد مات أم لا، يا الله ... والده! إنه لم يعرف أبدًا ما تعنيه كلمةُ أب في أي وقتٍ من الأوقات مثلما لا يفهم أبدًا سبب مجيئه إلى هنا، ولم يكن قلقُه على أبيه أو تضحيتُه بعمله احترامًا من الابن لأبيه، أو نوعًا من التديُّن والورَع؛ فتلك أشياءُ لا تعني بالنسبة له شيئًا، لم يكن تانيا يعرفُ أباه جيدًا، ذلك الرجل الذي طردَه مئاتِ المراتِ وهو جائعٌ ومُهلهَل الثياب، الرجل الذي تسبَّب في وفاة أمه بضربها الدائم العنيف، لكن حق الرجل الوحيد أن يُطالِب بالأبوة التي يُعاني تانيا من جرَّائها؛ لأننا حين نُعاني معًا نكون عندئذٍ أقرباء.

«لا ... أنا لا أبكي من أجل أبيك؛ فأنا وأبوك ننتمي للقديم، وسنموتُ بالطريقة القديمة، سنموتُ لنُخفِّف عن أنفسنا متعَ وندوبَ الحياة.»

وبيدٍ مرتعشةٍ تحسَّسَت أونيا، أخت تانيا، حبَّاتِ القلادةِ القديمة التي فسدَت حلقاتُها، والتي كانت ترتديها وهي فتاةٌ صغيرة، ثم استطردَت: «ها أنا ذا أفعل مثل أولئك الغرباء الذين جاءوا إلى القرية بدينٍ جديد ... كنتُ أسمعُهم وهم يعُدُّون الحبات ويُتمتِمون بكلماتٍ مقدَّسة فوق شفاهم لكي يتجنَّبوا المحن، إن كل شخصٍ يجمع حبَّاتِ ندوبِه ويعُدُّها لتجنُّب

المحن، وأحيانًا يصل الأمر إلى حد الملل خاصةً إذا ما كان عدَد الحبات كثيرًا، فيرغب المرء في التوقف عن زحزحة الحبَّات بأصابعه، لا ... أنا لا أبكي من أجل أبيكَ وإنما من أجلكَ أنت، من أجل حبَّات الخرز التي حصلتَ عليها، والحبَّات التي أثقلتَ نفسك بها، وتلك التي ستَرثُها فيما بعدُ.»

ثم أضافت وهي تناجي نفسها: «لا بُد أنك جائعٌ وظمآن، سوف أجد لك شيئًا تأكلُه وتشربُه.»

اختفت بسرعة داخل المطبخ المُحاط بالعشب، والذي بناه تانيا منذ عامٍ مضى، ثم بدأَت أم تانيا في البكاء، وأطبقَت أصابعُها فوق الأرض بشدةٍ متوسلةً إلى كل الأرواح والأقرباء الموتى أن يرحموا تانيا الذي هو ليس مسئولًا عن سوء حظه، وعندئذٍ شاركَها الأولادُ والبناتُ الصغارُ في البكاء، وكانت شفاهُهُم تتحرَّك بالدعاء المقدَّس من أجل مشاكل الكبار التي لا يفهمونها، وربما من أجل أنفسِهم.

تدفقَت مشاعرُ تانيا بالحب والأسى، وتدلَّت شفتاه إلى أسفل وهو يحبسُ دموعَه، وكانت أمه تهتزُّ مثل أوراق الشجر حين زحَف وأمسَك ذراعَيها برقَّة جعلَتها تذوب أو تتجزأ إلى قطعٍ صغيرة.

عادت أونيا بطاسةٍ كبيرة من اللبن الحامض وتركَتْها جانبه فشعر بجفاف حلقه، كانت يداه مشغولتَين فرفعَت أختُه الطاسةَ إلى فمه، وسرعان ما ابتلَعها بنهمٍ كما تبتلعُ الصحراء ماء النيل ... هزَّ رأسه راضيًا وكأنه طفلٌ انتهى لتوِّه من الرضاعة من صدر أمه الحنون، أمسَك أمَّه برقَّة أكثر فأمكَنه سمعُ ضرباتِ قلبها العجوز، ثم توقفَت عن البكاء ورقدَت بسلام فوق عظام تانيا الكثيرة والمتشقِّقة ... نهض تانيا بهدوء كي لا يُوقِظَها من السلام الوقتي الذي تنعَم به، وحتى لا يصطدم بجروحها، ورافقَها إلى سريرها الذي أعدَّته أونيا من جلد البقرة، مضى تانيا يطوف بذكرياته، فأبصَر أمه وهي فتاةٌ صغيرةٌ وبدينةٌ حين كانت تذهبُ للنوم في هدوءٍ حاملةً البطاطينَ المثقوبةَ التي تتغطَّى بها.

اتجه تانيا نحو النار وكان مصابًا بالدُّوار شاعرًا بتعَب اليوم فوق أكتافه، وراح يحرِّك جمراتِ النار المنطفئة، ثم استدعى أخاه الصغير، واقترب من أذنه هامسًا له بأشياءَ لم يستطع أحدٌ أن يسمعها، لكن الصغير أدركَها، وطافَت فوق شفتَيه الهزيلتَين ابتسامةٌ صغيرة ... كان الجميعُ يجلسُ حول تانيا واضعين أياديَهم فوق كتفه، وكانوا في وضع انحناءٍ يُعبِّر عن إحساسٍ بالتضامُن، ولم يُحاوِل أيٌّ منهم أن يكسر الصمت بالكلمات.

مدَّد تانيا كلتا قدمَيه الطويلتَين باتجاه النار المنطفئة، وانفجَر أخوه الصغير في الضحك، ثم توقَّف وجلس في مواجهة أخيه أمام النار، فطوَّقه تانيا بذراعه، وشدَّه إلى جانبه، وظلوا جميعًا في انتظار من يكسر الصمتَ الذي ساد الكوخ مثل صمت القبور، حتى تلاشى وهجُ النارِ الذهبيُّ في الظلام، وابتلعهم الصمتُ واحدًا بعد الآخر، وراحُوا في النوم وقد علَّق أصغرُهم رأسَه ورقبتَه المترهِّلة فوقَ فخذ أخيه، ولم يعُد سوى تانيا هو المتيقِّظ الوحيد؛ فقد كان جسدُه وعقلُه مشبعَين بالأحاسيس.

تمالَك قوَّته ووضَع كلًّا منهم في فِراشِه المحدَّد فوق الأرض الباردة والعارية إلا من أوراق الموز، مردِّدًا لنفسِه وكأنه يؤكِّد براءتَه: «سوف أضعُهم جميعًا في الفِراش، ها أنتَ ترى يا إلهي أنني أضعُهم في الفراش بهدوء ورقَّة.»

كانت أونيا، ذات الأربعةَ عشرَ عامًا، مستغرقةً في النوم فبدَت كسيدةٍ غيرِ متأنقة، وبالنظر إليها عرف تانيا أنها جميلةٌ وفاتنة، أشعَل عودَ الثقابِ لرؤيتها بوضوحٍ أكثرَ فأبصرها امرأةً كبيرة، وكانت علاماتُ الإجهاد مرتسمة فوق وجهِها الشيكولاتي، وصَدرُها المخروطيُّ تحت ثيابها الرخيصة كان حادًّا كالدبوس، كانت قويةَ البنية وبدينةً بما يكفي لأن تلدَ كثيرًا من الأطفال؛ فالخصوبة والقوة من سمات العائلة.

ظل يفكِّر وأقسَم بأنه سيقتُل من يتزوَّجها إذا ما أساء معاملتَها مثلما كان يفعل أبوه مع أمه، نظر إليها مرةً أخرى وهو يقاوم النومَ الذي يُغالبه في ضَوء عود الثقاب، تزايدَت ضرباتُ قلبه في صدره أمام جمالِ أخته فتذكَّر القصةَ القائلةَ بأن الرجل إذا رأى الرب فإنه سيموت، تفحَّصَها بعناية حتى احترق عودُ الثقاب وارتعَش بين أصابعه، فألقى به بسرعة، وظل يلعق أصابعه، ثم ركع إلى جوارها في ظلام الكوخ وإحدى ذراعَيه تحت رقبتها اللينة والذراع الأخرى تحت أردافها المستديرة البارزة، رفعها ببطءٍ كجندي يرفع زميلَه المصابَ في الحرب، ومضى بها إلى هيكل السرير الخشبي الذي صنعَه بنفسِه منذ وقتٍ لا يدريه، استيقظَت وألقت بذراعيها فوق كتفه وهي ترتعش وتقول: «يجب أن تكون قويًّا من أجلنا ... أنت رجل، يجب أن تكون قويًّا.» ثم عادت للنوم.

حدَّق تانيا في ظلام الكوخ دون أن يرى شيئًا، فعاود التحديق في ظلام روحه؛ حيث أبصر قليلًا من الضوء يُعلِن عن بزوغ الفجر.

كانت أحداث اليوم والساعات القليلة الماضية التي أحسَّها ساعاتٍ طويلةً قد بدأَت تُعكِّر مزاجه، وبدأَت تتلألأ معها خبراتُه التي تحتاج لمزيد من التركيز ... يجبُ على المرء أن ينتظر، وعليه أن يعُد أصابعَه مرةً تلو الأخرى حتى تشرق الشمس.

كان الكوخ هادئًا، وكم كان غريبًا ذلك الهدوء الذي تذكَّر خلالَه ضوضاءَ الحياة في ظلام القرية؛ حيث كان الأولاد من والبنات يلعبون «الاستغماية» و«الضبع والأسد» تحت ضوء الأعشاب المُشتعِلة، فهل كانت الضوضاءُ في كل مكانٍ أم أنه هدوءُ الكوخ الذي ساعدَه على سماعها أكثر؟!

تمطَّى تانيا قليلًا فلاحظ أن عضلاته ما تزال قوية رغم السير الطويل، ولم يعُد يشعُر بالإجهاد ... كانت أوامرُ عرَّافِ القرية ألا يُزعِج أحدٌ والده المريض الراقد في الناحية الغربية من الكوخ، لكنه شعَر فجأةً بضرورة رؤية أبيه، أو حتى مجرد النظر إليه من بعيد، حاول أن يستعيدَ صورتَه في رأسه، وكانت دهشتُه كبيرةً حين لم يستطع، فحاوَل أن يُغلِق عينَيه ويستعيدَ ملامحَه، لكنه فشل مرةً ثانية، فبادر بالتوجُّه إلى واجهة الكوخ ببطء عَبْر الشجيرة المزروعة في كوخ أبيه، وأزاح بابَ الكوخِ المصنوع من ألواح الخشب، فسمع أنفاس أبيه الضعيفة، ثم أشعل عودًا من الثقاب وأحاطه بكفَّيه، كانوا يُغطُّون الرجل المريض بجلد الماعز، وكان وجهه عاريًا وكذا قدماه ... اقترَب أكثر فأبصَر فمَ أبيه مفتوحًا عن آخره، وشعره البني كحبَّات الخرز مثل «الهوتينتوت» Hottentot وشيءٌ ما في هيئة الرجل العاجز جعل تانيا يشعُر بالغثيان والازدراء والكراهية والشفقة، شيءٌ ما ليس كعجُزِ ماما تانيا.

كان عجُز الرجل العجوز مختلفًا ... أطال تانيا النظر إليه فكان شبيهًا بالموتى؛ حيث فقد وجهُه القوي والقبيح بريقَه وعنفه، وكان جلدُه مُهلهَلًا بطريقةٍ تعافُها النفس، وندبةٌ كريهة فوق خده الأيسر تشبه المغارة، وكانت عيونه غارقة، تلك العيون التي كانت ذات يومٍ حمراءَ مُشرِقة من الغضب أو الشراب ومشغولةً على الدوام بالبحث عن شخصٍ ما تتصارع معه أصبحَت الآن غارقةً وكأنها تُخفي نُفسَها من الفضيحة.

تحرَّر تانيا من المرارة التي كانت تعتريه، ونظر بارتيابٍ إلى ذلك الشبَح المُنكسِر، وتمنَّى لو تعود أمُّه من موتها لحظةً قصيرة لتكون شاهدةً على ما يرى، وعاودَتْه ذكرى وقوعِ أمِّه على الأرض منذ زمنٍ بعيد، حين تفجَّر الدم من فمِها على إثر الضربات القوية لأبيه المخمور، وهي تقولُ له مستسلمةً لموتِها الفظيعِ المُوشكِ بأن قوَّتَه لا بُد ستنتهي يومًا ما، تذكَّر ذلك اليوم جيدًا رغم بُعد المسافة الزمنية، كما تذكَّر يوم أن فاضَت روحُه بالظلام، وأمسَك قبضَته بإحكام، وقال لنفسه بغضبٍ إنه في يومٍ ما سيقتُل والده.

ها هو أبوه يرقُد بلا حولٍ ولا قوة، وتمنَّى مرةً أخرى لو أن أمه ما زالت تعيشُ لترى ولو للحظةٍ قصيرةٍ ما صار إليه الرجلُ الذي ظلَّت تخدمُه بإخلاصٍ ثم قتلَها.

كان تانيا واقفًا يفكِّر ويتذكَّر، فتحرَّك والده كالماء الذي يشُق الأرض ببطء، وكانت حركةً يائسةً من رجلٍ وجد نفسَه فجأةً وحيدًا في الصحراء، حاول العجوز بيأسٍ وضعفٍ أن يستدير في نومه، وفكَّر ثانيًا في مساعدته، ومد يدَيه حتى لامَسَه لكنه لم يستطع، شيءٌ ما كان يعوقُه عن المساعدة، ربما كانت تلك المرارة أو ذلك الانتقام الذي يملأ قلبه، وربما ... لم يكن يعرف شيئًا سوى أنه لم يستطع أن يمُد يدَيه لمساعدة أبيه، وأنه كان يرتعش، كما أن الدموع تدفقَت فوق وجهه ... كان يرتعش ولم يقدر على الحركة، وأخيرًا اضطرب فجأةً دون سببٍ محدد وكأنه يمشي مسرعًا في حُلمٍ مزعج، اندفع مسرعًا نحو الخارج بلا وعيٍ فاصطدمَ رأسُه بقوة في سقف الكوخ المنخفض ... كان القمرُ خجولًا، وبدا متلألئًا رغمًا عنه، حتى لم تستطع أشعتُه أن تضيءَ تلال كاشا وانجا الغربية.

كان الأطفالُ مشغولين بألعابهم، وكان الأزواجُ والأولادُ والبناتُ يتصارعون هنا وهناك ... دائمًا كانوا يتصارعون، كان الوقت متأخرًا وتساءل تانيا بينه وبين نفسه: «هل سيُمضون الليل بكامله هكذا خوفًا من النوم المجهول؟» تذكَّر أن غدًا هو الأسبوعُ الثاني من الشهر التاسع، وأنه بداية موسم الحصاد؛ حيث يظلون ساهرين للاحتفال بموسم الحصاد كما يحدث كل عام ... إنهم يعملون حتى الموت في الزرع من أجل ليلةٍ واحدةٍ فقط وحصادٍ واحدٍ يتقدَّمون فيها بالشكر لكل الأرواح التي تحتكر كل شيء، وتقفُ إلى جانب الشر.

لم يستطع أن ينام؛ فثمَّة شيءٌ يجب أن يراه بوضوحٍ وهو يقِظ.

يجب أن يشغَل نفسَه بشدة تجنبًا لما يمورُ بداخله.

٣

تذكَّر تانيا صديقَ طفولتِه الذي عاد إلى القرية، واستقَر بها ممثلًا لأولئك الرجال ذوي الملابس الأنيقة الذين يعمل عندهم الخدَم، وفكَّر في زيارته لقضاء المساء حتى يُصيبَه التعب، خاصة وأنه يعيش قريبًا عَبْر الوادي.

كان جيمس يذهب إلى المدرسة في المدن البعيدة، فأصبح رجلًا متعلمًا، ظل تانيا يتذكَّر أيامه معه المليئة بالاكتشاف واللحظات الشقيَّة، فأبصَر الابتسامة التي كانت ترتسم فوق وجهه، وذلك التألُّق الشيطاني في عيونه الأفريقية الكبيرة، والتي كانت تختزنُ كثيرًا من المعرفة.

طرق تانيا الباب ثلاثَ مراتٍ لكن ضوضاء كثيرة كانت بالداخل جعلَت من العسير على أحدٍ أن يسمع الطرقات ... توقَّف لسماعِ ما يحدُث، فكان جيمس يتناقش بطريقةٍ رسميةٍ عن خطة رد الاعتبارات والحقوق الجديدة، وبالنظر من خلال شقٍّ في الباب شاهَد جيمس جالسًا إلى طاولة كتابته الناعمة يُقلِّب في ملفات رسائله الرسمية، وأبصَر نفس الطوابع التي كان يراها عند مستخدمه الأخير ... كان جيمس في وضع بين الجالس والواقف وكأنه يخشى أن تتجعَّد بدلتُه الغالية، وكان الفلاحون الكبار يُحيطونه وهم راكعون إلى جواره نصف عرايا متطلعين بشغفٍ إلى فرصتهم في الكلام.

لم يستطع تانيا أن يرى ويسمع في وقتٍ واحد، وكان عليه أن يُصيخَ السمع أو يضع عينَيه أمام شقِّ الباب تمامًا. شعَر بجمود الحجرة؛ فقد نَفِد صبرُ الفلاحين، خاصةً ذلك العجوزَ الذي يرتدي معطفًا من مخلَّفات الجيش يبدو أقدمَ منه، وكان العجوز جالسًا القرفصاء فوق الأرضية الأسمنتية الباردة يرسمُ بأصابعه فوق الأرض ليشغَل نفسه بعضَ الشيء من أجل أن يجد لما يدور في ذهنه سبيلًا بطريقةٍ يتجنَّب بها فقدانَ أعصابه، حتى

يصبح مثل ذلك الذي فقَد أعصابَه مع جيمس ومع الحكومة، والذي أرسلوه بعيدًا عن القرية تمامًا.

وضع عينَه في شقِّ الباب فأبصَره حين كان ولدًا صغيرًا وبدينًا ذا عينَين كعين الفيل المختبئة، وله خدَّان كالأنثى، وهو يلعب في الطين بمفرده؛ لأن بقية الأولاد كانوا يحتقرونه، نعم ... هكذا أبصره تانيا، وقد كبر الآن فجأة، ويرتدي بدلة من الصوف الاسكتلندي، ويجلس بصفةٍ رسميةٍ فوق مكتبه المليء بالطوابع الحكومية، ويقول لأولئك القرويين الجهلاء كيف يُحسِّنون من أحوالهم.

كان الفلاحُ العجوزُ يبصُق فوق الأرض مرةً تلو الأخرى رغمَ نظراتِ جيمس المعارضة، وأوشَك صبرُه على النفاد، وكان الكوخ الكبير مليئًا بالأحداث حتى صار صغيرًا، وبدا أن جيمس مستعدٌّ جدًّا أو سعيدٌ جدًّا لما يحدث، ثم فجأة هزَّ العجوز إصبعه بغضب مشيرًا إلى جيمس، واهتزَّ جسده داخل معطفه العسكري الكبير مثل الثعبان، وكانت شفتاه المرتجفتان تتوقفان كلما شرع في الحديث، وكأن شيئًا ما كان مختنقًا في حلقه، ثم كالثعبان سارَع بالبصق على الأرض وكأنه قام بتسليك حلقه وتوسَّل إلى جدَّته مرتَين، فتدفَّقَت الكلماتُ من فمه بسرعةٍ وصوتٍ عالٍ: «أنا لا أفهمك، ولا أفهم جنسك، ولا حتى ما يحدُث لبلدك ... نحن لا نفهمُ الرجل الأبيض فهو من قبيلةٍ أخرى أما أنت ...!»

كانت الكلمات غامضة، وعندئذٍ أشار إليه بحماسٍ أقلَّ واستطرد: «أنت وُلدتَ هنا ورضَعتَ من لبننا، واليوم تُخبرنا بوجوب رحيل القرويين عن هذه الأرض التي منحَها لنا آباؤنا. هذه الأرض!»

تحسَّس الأرضَ الأسمنتيةَ بسرعة وأضاف: «هذه الأرض حيث أمنا وأمهاتكم وحيث أطفالنا، لا ... إن الرجل الذي لا يعرفُ قبر أبيه كي يبكي عليه ليس برجلٍ على الإطلاق، قل لحكومتك إننا سنموت هنا، وعليهم أن يجدوا مكانًا آخر يزرعون فيه القطن.»

وقف بقية الرجال الكبار، ورفع العجوز رأسه بيأس وفتور، ثم فتح الباب، واندفع إلى الخارج حيث تبعه بقية الفلاحين برءوسٍ منحنية، وراحوا يتطلعون بعضهم إلى بعضهم، فعرفوا ما يربطهم، ثم اختفَوا في الظلام الذي اختفى فيه آباؤهم من قبلهم.

كان جيمس لا يزال جالسًا إلى طاولته الفخمة يكتب ملاحظاته وتقريراته إلى الحكومة، دون أدنى اهتمامٍ بحضور أو ذهاب الرجال الكبار. تفحَّص تانيا ملامحَه وهيئتَه فكان كبيرًا قبيح الشكل ذا بطنٍ مستديرٍ وعضلاتٍ يُزيِّنها اللحم مثلما يُزيِّنون أنفسَهم بعرباتهم الرشيقة وخدَمهم. كما استطاع تانيا أن يُلاحِظ تلك الندبةَ تحت عين جيمس، التي خلَّفها له حين كان ولدًا صغيرًا عاريًا يلعب في الطين.

تردَّد تانيا في الدخول وفكَّر أن يعود للبيت، لكنهما كانا صديقَين في الصغر يلعبان ويبكيان ويتصارعان معًا ... نعم، لكن ذلك أيضًا كان منذ زمنٍ بعيدٍ لم يكن فيه جيمس موظفًا حكوميًّا يرتدي تلك الملابس الثمينة.

قرَّر الدخول، فطرق الباب مرتَين، ودون أن يرفع جيمس رأسَه أجاب: «ابتعِد عن هنا فأنا الآن أكتب للحكومة، وسترى كم هي قوية.»

تنحنح تانيا، فرفع جيمس عينَيه، وسارع بالعودة إلى ملفاته، لكنه أدرك بسرعة أن الطارق فلاحٌ مختلف، إنه زميلُ اللعب القديم ... مد ذراعَيه بدون إحساس وقد كان رجلًا فارع الطول فبدا وكأنه ينظر إلى تانيا من أعلى، أو كأنه يسلِّم على مريضٍ فوق السرير، ولم يكن ذلك ما توقَّعه تانيا الذي لم يكن يعرف توقُّعاته تمامًا، لم يكن تانيا يتوقَّع عناقًا لكنه لم يتوقَّع أيضًا ترحيبَ جيمس الفاتر حين قال: «هالُّو تانيا ... بعد كل تلك السنوات.»

ظَل عقلُ تانيا يدور بسرعةٍ كبيرة، وكانت الصور تملأ الحائط، وكثيرٌ من الدبابيس فوق خريطة القرية، كما أن الحجرة لم تكن فخمةً تمامًا. وأصابت تانيا الدهشةُ من تلك الكتب الكثيرة المغطَّاة بالتراب، وقد نالت الحشراتُ من بعضها ... نظر تانيا إلى جيمس مرةً أخرى، فابتسم جيمس ابتسامةً مزيفةً جعلَت الندبةَ فوق وجهه تشبه الثقب.

قال: «اجلس ... كيف حالك؟»

لم يعرف تانيا بأي شيءٍ يجيبه، ثم تذكَّر مرةً ثانيةً أولئك الأولاد الصغار وهم يلعبون في الطين، وعاودَه صدى صوتِ جيمس: «اجلس ... اجلس ... اجلس» وكأنه صوتُ ضوضاء عَبر وادي «واشيتا»، ثم أحَسَّ بالظلم، نعم هو لم يتوقَّع عِناقًا لكنهما كانا رفيقَين مدةً طويلةً في الماضي، ولم يكن الأمر كما هو عليه الآن.

لم يهزَّ جيمس يدَه الناعمةَ واللزجة كثدي امرأةٍ قذِرة، فشعَر تانيا بعدم وجود أيةِ صلةٍ بين ذلك الموظف الحكومي بأوراقه الرسمية وبين الولد الذي كان يلعب معه، حتى إنه لا يستطيع الآن أن يسأله اللعب معه عاريًا في المطر ... ارتبَك تانيا بشدة فعقد يدَيه وجلس يُتمتِم وكأنه يريد أن يقدِّم نفسه شارحًا بأنه لم يمُت بعدُ.

تبادلا قليلًا من المزاح مثلما كانا يفعلان طوال سنواتٍ عشرٍ مضت، وظلا يتحدثان بصوتٍ هادئ، وقد فشلا في إخفاء حقيقة أن أحدهما يتحدث كموظفٍ حكومي وأن الآخر عاطلٌ آخر في القرية.

كان جيمس يقرأ الجريدة ويفكِّر في أهل القرية الذين يتحدثون دائمًا عن الفشل وسوء الحظ والموت، وتذكَّر آخرَ فلاحٍ جاء إليه متوسلًا من أجل إطعام أطفاله الجوعى

فطرده لأنه كسول، ولم يكن يتحدَّث إلا عن الموت، وقد وجده جيمس في اليوم التالي مُعلَّقا في الشجرة الكبيرة أمام منزله، كان يحدِّق في جيمس وهو ميت.

نظر الرجلان كلاهما إلى الآخر، ثم تصافحَا مرةً أخرى بودٍّ كما كانا يفعلان في الماضي، فسارع تانيا بالحديث متطلعًا إلى صديقه: «إنني في حاجة لصديقٍ يا جيمس؛ فبعض أصدقائي ماتوا، والبعض الآخر يعملون خدمًا في أماكنَ بعيدة، إنني أتوقُ لصديقٍ مثلما أمسكتُ بيدك وعُدتُ بك إلى المنزل وأنت خائفٌ في الظلام. لقد مرَرتُ بأحداثٍ كثيرة، وكثيرًا ما أشعُر بدوارٍ في قلبي، أحتاج لشخصٍ ما يقف بجانبي؛ فأبي يموت وأنت تعرفُ بأنني لا أحبُّه، لكنه أبي وهو يموت، ولم يعُد قويًّا، ولا يقدر الآن على ضربي. إنه يرقد فوق السرير ينظُر ولا يرى، ويُحرِّك شفتَيه دون أن يتكلم، أحتاج لشخصٍ ما يقف إلى جوار قبره، فأرجوك ساعدني.»

اطمأنَّ جيمس لأن تانيا لم يكن عازمًا على الانتحار، وإنما كان الموضوع خاصًّا بأبيه الفقير الذي يُوشِك على الموت.

قال جيمس: «سأقف إلى جوارك بالتأكيد في أي شيء يا «بارانيا». هكذا ناداه بلقب الطفولة، ثم استطرد: «أي شيء. وآسفٌ لأنك عانيتَ كثيرًا لكننا جميعًا نعاني ... أليس كذلك؟ ... دائمًا يموت شخصٌ ما ودائمًا الخوف من الموت، إن أمي أيضًا تُوشِك على الموت ونحن ندفنُ عقولَنا في الوظيفة، لكننا نُواجِه الموت في كل لحظة فلا يجب أن تخاف، ها نحن ندفنُ خوفَنا في هذه الملفات.»

ألقى بالملفات فوق الأرض، وأضاف: «وحتى في هذه البيوت الكبيرة حيث الشراب والصُّراخ في الخدَم، فإننا أيضًا نخشى الموت حين يسود الظلام، ونصبح منفردين، ونشعُر بالخوف كما حدث في ذلك اليوم وأنت تُمسِك بيدي يا «بارانيا».»

هزَّ جيمس «بارانيا» بيده، وعانقَه عند كتفه، وكانت يدُه هذه المرة ناعمة ولكنها ليست لزجة. لقد تحوَّل موظَّف الحكومة فجأةً إلى رجل، ووقف كلاهما في مواجهة الآخر، وتصافَحا بحرارة ... تصافَح موظَّف الحكومة مع الفلاح المُنكسِر.

شعَر تانيا باضطرابٍ في معدته، وأصابه الغثيان، فابتعد بذراعه عن جيمس، وبدا أن المرضَ سيُصيبه فوق الأرضية الأسمنتية، فقال: «يجب أن أذهب الآن ... يجب أن أمضي.» ثم سارع بالخروج.

لحق به جيمس في الظلام قائلًا: «سأسير معك حتى البيت.» فقد تانيا إحساسَه بالمرض، ولم يكن يعرف ما حدث في معدته، ربما كانت تلك الصورة فوق الحائط، أم

أنها طوابع الحكومة المهترئة، أم هو ذلك التحوُّل الكبير والسريع الذي طرأ على موظَّف الحكومة، لم يكن تانيا يعرف سوى أن معدتَه توقَّفَت الآن عن الألم.

سارا معًا بهدوء دون أن يتبادلا كلمةً واحدة، وكان الفرقُ كبيرًا بين هذا المشي وذلك الذي كان منذ زمنٍ بعيد؛ حيث كانا يضحكان خوفًا من المجهول في الظلام، وخشيةَ أن ينفصل كلاهما عن الآخر.

كان كلاهما يفسِّر بخبرته ذلك الفرقَ الكبيرَ الذي حدث، ثم أبصَر تانيا حافةَ الصبارِ التي تُحدِّد شجرة الموز الخاصة بأبيه، فقال: «إلى اللقاء بارانيا.»

وقال جيمس: «إلى اللقاء بارانيا.»

وانفصل كلٌّ منهما في طريق.

٤

كانت الشمسُ في الصباح تخترقُ سقفَ الكوخ المصنوع من القَش، استيقَظ تانيا، وتمدَّد بجسده قليلًا وقد شعَر بالوهن، كان العُشب فوق سريره قد تلاشى تقريبًا، فأصابته خشونةُ السرير الخشبي بالأرق ... لا بُد أن أمه قد بلغَت من الكِبَر ما جعلَها تنسى أن تضع عشبًا جديدًا في سريره، كما كانت تفعل دائمًا عند عودته.

نظر إلى المدفأة المكوَّنة من أحجارٍ ثلاثة، وابتسم حين رؤيته لذلك الإناءِ القَذر، كانوا يُعِدون عصيدةَ الموز للإفطار، فتذكَّر أمه حين كانت تصنع نفس الوجبة دائمًا، وكان يقول لها برقَّة وحب: «الحياة القديمة الفقيرة ... الحياة القديمة الفقيرة والجميلة.» كانت تتلمَّس طريقها في ظلام الفجر كي تصنع إفطار الأطفال، المكوَّن دائمًا من الموز الأخضر وزيت الفول السوداني والماء، الذي لا تملك سواه.

استيقظ تانيا، ونظر بحذَر في اتجاه باب الكوخ الصغير، فأبصر أمه تجلس فوق الأرض مقيَّدة القدمَين، ترتدي قطعةً من القماش القطني الذي لا تملك شيئًا غيره، وتلفُّه في حجرها، كانت تتثاءب بسأمٍ ونفادِ صبرٍ في الشمس الفاترة التي لم تنعم بها أبدًا، وراح تانيا يتطلع إلى جسدها النحيل وهي تنحني وتُطرقِع القملَ بين أظافرها القَذِرة، وقال: «إلهي ... إلهي.» ثم وقف إلى جوارها وهمَس: «صباح الخير يا أمي.»

مسحَت الدم بسرعة من فوق أظافرها، وحاولَت أن تغطِّيَ صدرها، ثم قالت بخجلٍ طفولي: «صباح الخير.» ... كانت دائمًا قليلة الكلام، وهي التي قالت ذات مرةٍ بأن على المرء أن يُعانيَ في هدوء.

سألت تانيا: هل تناولتَ إفطارك؟

أجاب: لا.

شعَرَت بالأسى، وقالت: لقد ادَّخرتُ لكَ لبنَ الماعزِ طَوالَ الأيام الثلاثة الماضية.

أجاب ببطء ودون شعورٍ بالفخر: شكرًا يا أمي.

عاودَت طرقعة النمل، وساد صمتٌ غريبٌ راح تانيا من خلاله يتفحَّصها، فأفزَعه شكلُها القبيح وجلُدها القديم الذي يكسو عظامَها، وعيناها اللتان فقدتا إشراقهما، ورأسها الخالي من الشعر، الذي كانت تقصُّه دائمًا حدادًا على أقربائها الموتى، والذي قالت أونيا ذات مرة وهي تسخر منها بأنها تفعل ذلك للحصول على مزيدٍ من الشمس، لكنها لم تفهم أن أونيا تضحك معها؛ لأنها لم تكن تعرف الضحك والدفء العائلي أبدًا ... ركع تانيا بجوارها، وراح يساعدها في تعقُّب القمل الهارب، وقد جعلته يفقد صوابه حين أبصر يدَيها ترتعشان وهي تتبعُ القملةَ التي اختفت في جرحها القَذر ... فكَّر تانيا أن يغسل لها ذلك القماش القطني الذي ترتديه، لكنه تذكَّر بأنها لا تملكُ شيئًا آخر ترتديه.

قالت: كان ينبغي أن ترى والدَك بالأمس.

– لقد فعلتُ لكنه كان نائمًا.

– نعم. وقد قال إنكَ كنتَ تدخلُ وتخرجُ مثل شخصٍ يدخل ويخرج من دورة المياه.

كرَّر تانيا: كان نائمًا.

إنه لم يكن طيبًا معك أو معي وحتى مع نفسه؛ فلقد أطبقَت عليه روحٌ غريبة، وكنتُ أراه يبكي حين يكون مخمورًا في محاولةٍ يائسةٍ منه للقضاء على ذلك الثقل الغريب في روحه، لقد كان طفلًا حزينًا سيِّئ الحظ، وعندما كان يشرب كانت تُطبِق عليه تلك الروح الغريبة، فيصبح قاسيًا مثلما فعل في ذلك اليوم الذي قتل فيه أمك.

أغلق تانيا عينَيه لذلك المشهد الرهيب الذي امتثل أمامه مرةً أخرى، ثم استطردَت: قال لي والعَرَق يغطِّي حواجبه بأن شيئًا بشعًا كان يثقل صدره في الليلة الفائقة لدرجة يصعُب معها التنفُّس.

وضعَت أصابعَها النحيلة فوق فخذ تانيا القوي، وهمسَت إليه بهمساتٍ ملؤها الألم وكأنها تقول سرًّا نهائيًّا عن حياتها: «ابني ... حين تُصبِح كبيرًا في مثل عمري ...»

بصقَت وتوسَّلَت إلى السماء المشرقة، وأضافت: «سوف تفهَم وتتعلَّم الغفران، وستتناول الحياةَ بجديةٍ أقل؛ فوالدك هو ابني، وكم حملتُه هنا (تشير إلى رحمها السقيم) في أوقاتٍ عصيبةٍ لمدة تسعة أشهر، ثم أنجبتُه في وقت المجاعة، وقد جاهدتُ في الذهاب إلى الكهوف هناك (أشارت إلى تلال كاشا وانجا البعيدة) لأبحث عن العسَل من أجله، وقد كنتُ أخفي العسَل عن أبيه النهِم؛ فإنكم معشرَ الرجالِ تصبحون نهِمين عندما تجوعون

(استدعَت اسم جدها قائلة: سابولاي، الذي لم يكن يعرفُه أحد).» ثم أضافت: لقد لسَعَني النحل كثيرًا حتى تصوَّرتُ أنني سأموت، وكان جدُّك يبتسم من غبائي ... كبر أبوك بعد ذلك، وكنتُ أطعِمه جيدًا، كما أنني كنتُ بأسنانٍ بيضاءَ قوية، كنتُ أطعِمه من فمه حتى صار يمشي على أربع، وكما تعرف فإنه كان ابني الوحيد. ولقد صار ولدًا بدينًا لكنه كان ناعمًا كالبنت. وأتذكَّر الآن قول أبيه: «لن يصبح رجلًا لأنه بدين.» ثم مات أبوه وتركَني له، وعند القبر بكيتُ دموعًا من عيني فقط، أصبح أبوك شابًّا، ورحتُ أبحث له عن فتاةٍ في القرية كلها، فالتقيتُ بأمك.

استطردَت والدموعُ تبلِّل عينيها: كانت صبيةً جميلةً تتمتَّع بالصحة والعافية والسعادة، وتزوَّجها أبوك، وأنجبك أنت وإخوتك، ثم ... ثم ... هو ... (بكت بدون دموع، ووضعَت وجهَها في الأرض كمن تُخفي نفسها من الشمس الدافئة).

اقترب تانيا محاولًا أن يُمسِكَها كما حاول في الليلة الماضية، لكنها دفعَتْه بعيدًا، وقالت: «لا ... يجب أن نُعاني بمفردنا، اذهب الآن لرؤية أبيك، فإذا تخلَّيتَ عنه الآن فإنك أيضًا ستموت في الحقل وحيدًا وفمُك مفتوحٌ في الشمس، اذهب لرؤيته؛ فالإنسان يحتاجُ في لحظات الموت إلى شخصٍ ما يُمسِك بيده، اذهب لمشاهدتِه فلقد غادرَتْه الروح وعليك برؤية ما تبقَّى منه، هيا اغرُب عن سمائي!»

شعر تانيا بألم في معدته مع أنه لم يتناول إفطاره بعدُ، فقد كان دائمًا يشعُر بالمرض، ويُصيبُه الدُّوار في مثل هذه اللحظات التي تُوقِظ روحه، أصبحَت الأمورُ أكثر وضوحًا بالنسبة له، فأغلق عينَيه تجنبًا للشمس المشرقة.

كان تانيا ابن «رواتا بندرا» الواقف على حافة الهاوية وفي طريقه للسقوط، لكن جدَّته التي يدعونها بماما ما تزال حية وكذا أختاه.

استطاع تانيا أن يُبصِر تحديقَ الرجلِ العجوزِ إلى الذباب، فجلس تحت ظل الكوخ متصببًا بالعرق. إنه «تانيا رواتا» فيجب إذن أن يراه ... تحرَّك إلى داخل الكوخ دون أن يفتَح عينَيه إلى حيث يرقد أبوه، فكان من اليسير رؤية العرق المتصبِّب فوق وجهه، والذي يوحي بمعاناته الداخلية. جلس تانيا بجوار السرير الموشك أيضًا على السقوط، فانتبه أبوه، واستدار بألمٍ حتى أصبح في مواجهة ابنه، وحاول أن يتمعَّن النظر فيه، لكن كلاهما ظل مندهشًا أثناء تبادل النظرات، التي بدت مشرقةً كنظرات الموتى المعتادة ... ارتبك كلاهما وشعر بالذنب، أغلق العجوز عينَيه ومد ذراعه التي تشابكَت مع ذراع تانيا كالسلسلة في الظلام، كان العجوز هو الذي مد ذراعه أولًا وهو مُوشِك على الموت، وكانت شفاهُه الجافة

تتحرك فقط دون أن يتكلم؛ فلقد فشلَت كل محاولاتِه في الكلام ولم تثمر عن شيء سوى مزيدٍ من العَرق فوق وجهه … اقترب تانيا من والده أكثر، ولم يستطع أن يسمع سوى تهتهات العجوز وهو يُناجي مكرِّرًا: «ابني … ابني … ابني …»

تبلَّلَت أياديهما بالعَرق، وفتَح العجوز عينَيه ناظرًا إلى ابنه مثل قطةٍ جائعة، ثم سحَب يده واستدار ببطء نحو الحائط بينما قال تانيا متلعثمًا: «أبي … أبي.»

كان العجوز قد عاد إلى نومه.

أبصر تانيا جدَّته وهي تنسحب من دخل الكوخ ببطء ويدُها فوق فمها … كانت تراقبهما بعينَيها الضعيفتَين، توقَّف تانيا وألقى نظرةً أخيرةً إلى أبيه النائم، ثم خرج يتجول حول الكوخ بلا هدف، وبعد لحظةٍ سار في شمس الظهيرة التي تخطفُ البصر وقشعريرة روحه، وكان سَيرُه هذه المرة في خطٍّ مستقيم حتى إنه لم يستمع إلى صوت جدَّته الضعيف وهي تزعق: «إلى أين أنت ذاهب؟» كانت تتبعُه بانحناءٍ مقاوِمةً ضعفَها حتى سقطَت فوق التراب دون أن يشعُر بها تانيا، الذي كان يُواصِل سيره بلا هدف، مكرِّرًا لنفسِه بصوتٍ عالٍ ما قالَه والدُه: «ابني … ابني … ابني …»

كانت تلك هي كل ما استطاع والدُ تانيا أن يقولَ من كلماتٍ عندما التقيا بمفردهما، وتبادلا التحية والعرق، رغم كثرة ما كان يُوجَد للقول وكثرة ما كان يُمكِن اكتشافُه وإدراكُه.

اكتشف تانيا أنه يقف تحت شجرة الباوباب الكبيرة التي عرفها صغيرًا، وقالوا له بأنهم يحدِّدون قبر جده بأحد أغصانها، ولم يكن يدري كيف ولماذا جاء إلى هنا، لكنه تذكَّر نفسه حين اختبأ عندها وهو ولدٌ صغيرٌ حين ماتت أمينة، وتذكر أيضًا أن ذلك المكان عند الشجرة أصبح مكانًا مقدَّسًا منذ اللحظة التي دفنوا فيها جدَّه، كما قالت له أمُّه.

جلس تحت الشجرة واضعًا رأسَه بين فخذَيه وإحدى يدَيه تُغطِّي عينَيه، واليد الأخرى تمتد وكأنها تستقبل شيئًا، وكان صدى الصوت الضعيف داخل نفسِه يقول: لقد قبلت لعنتي وتجوَّلتُ عَبْر العالم كالنعامة العرجاء التي تلتقط البذور من أرضٍ جافَّة، وكانت البذور التي التقطتها ذات نواةٍ مُرة المذاق، وها أنا ذا اليوم أتوقُ لمعرفة السبب وراء قصوري، والسبب في جفافِ أرضي، لقد ضربوني ولم أشكُ، وأسأل الله أن يَمسحَ دموعي، وأريد أن أعرفَ خطيئتي.

هكذا كان يتوسَّل بصوتٍ عالٍ، ثم رفع رأسه فجأةً إلى السماء مثلما تفعل النعامة عند إصابتها بالفزع، وظل مُحدِّقًا في السماء متمنيًا أن تتصدَّع كما تصدَّعَت من أجل المسيح،

نظر إلى قاعدة شجرة الباوباب، لكنَّ أحدًا من أجداده لم يظهر، وإنما ساد صمتٌ ساخر وحرارةٌ شديدة، وبالكاد تتحرك إحدى أوراق الشجرة.

تطلَّع تانيا إلى نفسه مرارًا في حر الظهيرة الشديد وقلة الهواء، ثم أبصر الماشية المُثقَلة بقرونها الطويلة وهي تستريح تحت ظلال الأشجار المتعدِّدة الألوان، وبعض الأولاد الصغار الذين تلفحهم الشمس وهم ينامون إلى جوار الماشية جائعين … كان أحد الأولاد يرتدي قطعةً من قماش البفتة حول خصره ملطَّخة ببقعةٍ بيضاءَ حديثة، فتذكَّر أيام أن كان مثل أولئك الأولاد، وكم كان وقتَها جائعًا، وعاودَه ذلك السرورُ الكبيرُ الذي كان ينتابُه حين كانت أمه تبيع كثيرًا من الموز، وتشتري له بشلنَين قطعةً من القماش القطني الأبيض.

بدأ في نزول التل متجهًا نحو البيت، وكانت رؤية الماشية المُثقَلة بقرونها ما زالت تُلاحِقه، جلس عند ركن الغابة حيث التقى صديقه القديم «موجيا مابيبا» بصحبة امرأةٍ ترتدي قُبعةً من القش وحذاءً ثاقبًا لا بُد أنه من خارج كاشا وانجا، وكان موجيا يرتدي طربوشًا ممزقًا وقميصًا مليئًا بالثقوب، ولا يرتدي حذاءً، ويبدو في انحنائه كالبطة الكبيرة ويوحي مظهره بحياةٍ طائشة؛ فوجهُه مليء بالندوب، ومشيتُه عرجاء، كما أن أغطية ركبته مليئة أيضًا بالثقوب، ربما من كثرة الركوع والصلاة والتوسُّل.

أصابت موجيا الدهشةُ لرؤية تانيا، فتَمتَم بكلماتٍ قليلة، ثم توقف على إثر ضحكةٍ طفوليةٍ من رفيقته، فبدا تابعًا هَزْليًّا، وقال ببهجة: تصوَّرتُ أنك ميتٌ يا رجل!

تبادلا الضحكات وهما يتصافحان، ثم قال تانيا بدون تفكير: كنتُ سأخبرك.

ضحك موجيا أكثر وهو يهتزُّ فظهَرَت أسنانُه البيضاء، ثم توقف فجأة ونظر إلى المرأة، وقال: إنها امرأتي لهذه الليلة، وأنا لا أعرفُ حتى اسمَها.

قال ذلك وانفجر ضاحكًا مرةً أخرى.

تفحَّص تانيا المرأة جيدًا حتى التقت الأعين، وبدا أن ثمَّة أشياءَ كانت تُوحي بالرغبة والاشتهاء، كانت عيناها بنيتَين كبيرتَين كأنهما تتوسَّلان طلبًا للراحة، ابتسَم لها وانحنَى برأسه حتى لا يُصافِح ذراعها القَذرة، كان ثديُها كبيرًا جدًّا وفكُّها السفلي بارزًا وقدماها نحيلتَين لا يكسوهما اللحم مما جعل الحذاء يبدو كبيرًا.

توقَّف موجيا عن الضحك، ومسَح دموعَه بظهر يده المليء بالندوب، ثم نظر هو والمرأة إلى تانيا وسألاه: ماذا حدث؟

– لا شيء … لا شيء على الإطلاق.

– إذن دعنا نذهب مع امرأتي؛ فهي تؤجر بيتًا بجوار شجرة آبائك المقدَّسة، تلمَّس موجيا جيوبه البارزة، وأخرج عشرة شلنات، ثم أضاف: أملكُ بعض المال الكافي لطعامنا وشرابنا الليلة، كما أن امرأتي ستُحضِر لك امرأة … أليس كذلك يا امرأتي؟!

لم يسمعها موجيا وهي تقول نعم بصوتٍ خفيض؛ فقد كان مشغولًا بالضحك مرةً أخرى، ثم قال وهو يُربِّت فوق كتف تانيا: لدينا اليوم وقتٌ يا رجل، وأنت تستحقُّه.

توقَّف موجيا فجأة، وتنفَّس هواءً حزينًا، وتطلَّع إلى تانيا في عينَيه، ثم وضع ذراعه فوق كتفه، وقال: ماذا حدث بالضبط يا صديقي، هل مات أحد؟

طلَب من المرأة أن تترُكَهما لحظة.

قال تانيا: لا … لا … دعها يا موجيا؛ فلا شيء يفيد، كما أن أحدًا لم يمُت في عائلتنا منذُ زمنٍ بعيد.

لفَّ موجيا إحدى ذراعَيه حول خصر امرأته النحيل، وذراعَه الأخرى حول خصر تانيا، وبدءوا يتحركون.

كانت ماريا تُؤجِّر البيت الذي كان محلًّا للبيرة، ثم حوَّلَته ببراعتِها إلى استخداماتٍ أكثر جاذبية، وكان بيتًا واسع الشرفات في النهاية الغربية لكاشا وانجا، ويُخفي نفسَه تحت شجرة على بُعد خطواتٍ قليلةٍ من الطريق الرملي؛ حيث يمارسون كل الأشياء التي لا ينبغي أن يفعلوها، كان السقفُ من الحديد المتجعِّد بدلًا من الأعشاب والأرضية من الأسمنت، وكانت الحجراتُ فارغةً إلا من بعض المقاعد القليلة، وفي المنتصف كان باستطاعة المرء أن يتَّكِئ للشراب أثناء المداوَلة.

كان الحاضرون يتحدَّثون بهدوء أو يُحدِّقون في الأرض، وعندما دخل الثلاثة ساد الصمت، ورفعوا أعينهم إلى ماريا، التي بدت كأنها طيرٌ يعود إلى عُشِّه محمَّلًا بالطعام في منقار، بادلَتْهم التحية، وأغدقَت عليهم بابتسامتها المزيَّفة، بينما وقف تانيا بجوار الباب واضعًا إحدى يدَيه فوق وجهه تجنبًا لشمس الظهيرة، وراح يُحدِّق بغير حماسٍ إلى رجالِ ماريا المختلفين، فتوقَّف أمام ذلك العجوز الجالس عند الركن بقدمَيه المعروقتَين، ولاحظ أن إحدى قدمَيه بثلاثة أصابع فقط، كانت تجلس فتاةٌ جميلة في حوالي السادسة عشرة فوق حجر العجوز ذي الرأس الأصلع المليء بالخدوش، وعندما لاحَظ موجيا أن تانيا مهتمٌّ بالعجوز اقترب من أذنَيه كاتمًا ضحكاتِه وراح يهمس له عن الرجل الذي لا يعرفه أحد: تقول الإشاعات إنه كان ابنًا لأحد زعماءِ قريةٍ بعيدةٍ في الجنوب وإنه كان ميسورًا في المال

والأبناء والإمكانات التي تجعل منه زعيمًا، ثم التحق أخوه الكبير بوظيفةٍ حكومية، وبدأ حملةً ضد وجود الزعماء، وعندما سمع أبوه العجوز عرف أن قوَّتَه تنهار على يد أحد أبنائه، فأصابتهم اللعنة وبدأَت الماشية تموت حتى أصبح غارقًا في الشراب الذي كان يصنعه من الذرة ويشربه في البيت، عندما سئم بكاءَ زوجته تحت قدمَيه وذهولَ أبنائه. راح يشرب في الحانات بعد أن يبيعَ جزءًا من أرضه، عاد ذات يومٍ إلى البيت فوجدَه محترقًا بكل أولاده، وشاهد زوجتَه ترقُص بجنون وهي تتألم فنظر إليها واتجه نحو الشمال بينما كانت هي ترقص في اتجاه الجنوب، حتى وصل إلى هذا البيت الغامض؛ حيث احتوته ماريا بقلبها الطيب كجدٍّ للجميع، وفي يومٍ ما شاهد تلك الفتاة، وتعاطف كلاهما مع الآخر؛ فقد رأى فيها ابنتَه التي عوَّضَته قليلًا عن اللعنة التي أصابته، كما وجدَت هي فيه الحماية من أهوائها وأهواء الرجال، حتى إنه كان يرتق ملابسها ويزيل البراغيث من قدمَيها الجميلتَين، رغم أن كليهما لم يكن يعرف اسم الآخر، وكانا يتبادلان الحديث بصعوبة فيما عدا أسئلةً من نوع: «حبيبتي، هل أنتِ جائعة؟» أو: «هل أقدِّم لك بعض البيرة؟» وكانت الإجابة ثابتةً لا تتغير: «لا يا أبي.»

هزَّ تانيا رأسَه تعاطُفًا مع هذه الحكاية الحزينة، فقال موجيا: هناك إشاعةٌ أخرى تُحكَى عن أن هذا العجوز كان «دون جوان»؛ فقد كان يقوم بدور الرسول والمساعد في كل الوظائف التي تتطلب النشاط وخفَّة الحركة؛ مثل ربط عناقيد الذرة في الأشجار، أو مساعدة الماشية المريضة. وهكذا اقترب من قلوب النساء اللاتي كن يفتحن له الباب بترحاب عندما يطرق الباب في الموعد المحدَّد، لكنه حين كبر أصبحَت النساءُ تسخَر منه، خاصة حين وجدن مَن هم أصغر منه سنًّا، واعتبرَتْه النساء مهرجًا، وكن يقلن له في وجهه إنه عاجز لا ينجب، فأصابه اليأس ووجد ضالَّتَه عند ماريا، ولم يتبقَّ له سوى أن يصُب مشاعره في تلك الفتاة الصغيرة، وكأنها مرآةٌ تاريخيةٌ لحياته، حاول الاستئثار الكامل بها، وكان من الغريب أنها أيضًا تعلَّقَت به كما يتعلق أبو جلمبو بمحارةٍ ميتة.

قبل أن ينتهي موجيا من سرد تلك الإشاعة إلى تانيا تدخَّلَت ماريا وقالت وهي تشكو من حَلْقها: «قلتُ قبل ذلك بأن هذه الأشياء لن تكون أثناء النهار، لن تكون أبدًا؛ فأنتم لستم حيوانات أو كلابًا، ولكنكم آدميون.»

ضحكوا جميعًا فظهَرَت لثة العجوز الأرجوانية وأسنانه البنية وتلعثَم قائلًا: «إن شباب اليوم ذوو دمٍ ساخن.»

لم ينتبه أحدٌ لما قاله العجوز؛ فقد كان الجميع يتطلع إلى ماريا وهي تدفع امرأةً أمامها قالت بأنها ستكون امرأة تانيا لهذه الليلة، ضحكوا مرةً أخرى وابتعد تانيا قليلًا، ثم اقترحَت ماريا طاسةً لكل شخص احتفالًا بأنها ما زالت تعيش.

وضعَت امرأة تانيا إناء البيرة المليء بالرغوة فوق الأرض، وراحت تصُب للحاضرين في الطاسات بادئةً بالكبار.

زعق موجيا قائلًا: «الموسيقى ... الموسيقى» فهبَّت الفتاةُ الصغيرةُ من فوق حجر العجوز، وتحرَّكَت برشاقةٍ كالقطة نحو الصندوق الأسود، وقامت بتغيير الإبرة، ثم نظرت إلى الحاضرين لئلا يريد أحدهم اختيارًا خاصًّا، لكنهم كانوا مشغولين بالشراب، وكانت الرغوة تنسكب فوق الأرض وهم يتحدثون بأصواتٍ ضعيفة، أو يشيرون برءوسهم بالموافقة. كان تانيا هو الوحيد الذي ما يزال واقفًا عند الباب ممسكًا بطاسته، ومحدِّقًا في الشمس التي لا تبعُد كثيرًا عن بيته في الجبال الغربية.

وقفَت الفتاةُ الصغيرةُ بجوار الجرامافون، وبدأَت الموسيقى، فتوقَّف الجميع عن الحديث، وكانت طاساتُ البيرة تفرغ بسرعة، مما دعا موجيا إلى أن يهمسَ للمرأة المتوسطة العمر بأن تدورَ عليهم بجرعاتٍ أخرى.

كان الكبار يهزُّون رءوسهم بإيقاعٍ أمريكيٍّ مكسور دون أن يفهموا شيئًا، وكانت الأغنية تقول: «الجلوس ... الجلوس انتظارًا لرنين جرس التليفون طوال الليل ... أين يُمكِن أن تكوني يا عزيزتي، با ... با ... بو ... با ... با ... بو.»

أما الصغار فقد كانوا يحرِّكون خصورهم وأكتافهم بقوة وتناسُق، وكان موجيا يتناول طاسةَ البيرة الثالثة فاضطربَت حركاتُه، وراح يترنَّح بعضلاتِه المشدودة غيرَ مدركٍ للبيرة المنسكبة فوق رباط ركبتَيه، وبدا على تانيا التعب وهو يبتسم.

أصبح الجميع مخمورين فيما عدا تانيا، ولم تتوقَّف الموسيقى، وحين أصبحَت النغمات شاذةً تدفَّقَت الرمالُ من الأرضية، وصار لونُها ذهبيًّا في الضوء القادم من الباب، ومن أشعة الضوء المنبعث من ثقوب السطح المتجعِّد والحائط الطيني.

شاء تانيا ألا يصبح مخمورًا، وكان الوحيد الذي لم يفقد توازُنه، والوحيد الذي لاحظ أشعة الضوء الذهبية وذرات التراب القليلة التي تتساقط في رغوة البيرة، وكان العجوز يتجرَّع البيرة ضاحكًا باستهزاء بينما يهمس تانيا لنفسه: «من التراب وإلى التراب، من التراب وإلى التراب.» أصبحَت حركات موجيا طائشة، ولم يستطع أن يفتح عينَيه، وامتلأ وجهه بالعَرق، وكان يتلوَّى بشدةٍ مثل النحلة، ويمصُّ قدمَه العارية وهو يفتح ذراعَيه بإيقاعٍ منتظم.

كانت نهاية الأغنية تقول: «حبيبتي سو»، صفَّق الجميع لموجيا الذي فقد توازُنه وأصبح عنيفًا، زعق موجيا وهو يرتشف جرعةً أخرى من طاسته الرابعة: «الموسيقى ... الموسيقى».

جلس تانيا فوق عتبة الباب، واتَّكأَت الفتاةُ الصغيرةُ فوق حجر العجوز وهي تُمسِك له بالطاسة التي لم تَنتهِ بعدُ، قدَّمَت الفتاة الشابة نفسها قائلة: «تريسا»، فكان ذلك غريبًا؛ لأن أحدًا لم يكن يعرفُ اسمَها، حتى العجوز الذي كان نائمًا في الركن فاتحًا فمَه، غير مدركٍ للضوضاء من حوله، لا بُد أن شيئًا ما قد أثارها في تانيا حسيًّا كان أم عاطفيًّا، ربما كان الانفعال الواضح في هدوء تانيا، ذلك الهدوء الذي يشبه البيضة حين تُوشِك على الانشطار إلى قِطعٍ غير معروفة ... اندهشَت النساء وبخاصةٍ الصغيراتُ منهن لذلك الانجذاب غير المتوقَّع، ولم تستطع تريسا إخفاء دهشتِها تجاه تانيا.

وضع موجيا طاسته الفارغة فوق الأرض، وصرخ مرةً أخرى: «الموسيقى ... الموسيقى»، أبصر تريسا متكئةً فوق حجر تانيا، فغمز إلى ماريا التي كانت تفكِّر وهي تتجه نحو التسجيل، ثم قالت: «دعهم وشأنهم فإن الظلام سيسود حالًا، وهما طفلان متعبان، وعليهما أن يتخيَّلا الراحة.»

قال موجيا ببهجة: «أوه ... إنه ماسينجوا».

كان ماسينجوا يضرب الهواء كالحصان المربوط في شجرة، وطلبَت ماريا الرقص مع موجيا الذي فرد ذراعَيه، وهزَّ أكتافَه ورأسَه، وكان خصرُه يتلوَّى بحماسٍ كالنحلة، رقصَت ماريا حوله بطريقةٍ ميكانيكيةٍ في البداية، ثم أغلقَت عينَيها، وبدت بحركاتها الصافية كأنها تذوب في سائل، كانت ترقص كملكة النحل حول مليكها وهي تميل بصدرها الكبير وتمُد ذراعَيها وتسحبُهما بايقاعٍ منتظمٍ دون أن تلمسَ مليكَها، لكنها كانت تُحس بالموجات النابضة في الهواء، كانا كموجتَين ترقصان حول بعضهما بحركاتٍ صافية، وكانت كل خلية في جسدَيهما تنبض بالحركة، وكأن ماسينجوا كان يعزف هذه المقطوعة من أجلهما، أو من أجل هذه المناسبة أو اللحظة التاريخية ... كان كلاهما قد عانى المتاعب في طفولته، وهكذا توهَّما أنهما يُخفِّفان عن أنفسهما ... ارتفعَت إيقاعاتُ ماسينجوا، وعلا صوتُه الرتيب في نشوة، حتى أصبح الراقصان كالرمح المشدود، وارتقى كل جزء من جسدَيهما إلى مستوى الكمال، ثم طلب ماسينجوا من الجميع مزيدًا من الحركة والانحدار، وكان أن فعَلوا ما أمر به، وربما أكثر.

كانوا جميعًا مستندين إلى الحائط، والبعض يُغمِض عينَيه وهو يهتز أو يصفِّق غيرَ مدركٍ لانسكاب الطاسات فوق الأرض والملابس والأجساد العارية ... كان تانيا ما يزال

مستندًا إلى إطار الباب يلفُّ إحدى ذراعَيه حول خصر تريسا، ويُمسِك الطاسة بالذراع الأخرى، دون أن يثير انتباهَه شيء، وكان يتجول في المكان كأنه شيطانٌ ملعون وقد ساورَتْه مشاعرُ القلقِ من لعنته.

فتح تانيا فمه وهو يهتزُّ بإيقاع مع الراقصين ويدقُّ قدمَيه العاريتَين فوق الأرض كالآخرين، وراح يحدِّق إليهم دون أن يراهم، لم يلحظ ذلك الهدوء العجيب فوق وجه ماريا، رغم أن كل شخصٍ في الحجرة كان متصببًا بالعرق والإرهاق، لكن وجه ماريا دائمًا يبدو متفردًا ومنعزلًا، منعزلًا من شدة الألم أو من السرور خاصةً حين لا تضحك أو تبتسم، كان وجهُها يوحي بمعاناةٍ كبيرةٍ يصعُب التعرُّف عليها أو تسجيلُها؛ لأنها ترفض أن يعرفَ معاناتَها أحدٌ، أو ربما لأنها نوعٌ من المعاناة لا يَقْدر على ارتداء قِناع الأسى.

كان وجهُها هادئًا كالمومياء أو كأنه وجهُ ميت، إنه الخوف الدائم من الموت الذي يتجلى في نبضاتِ الجسدِ الراقصِ حول موجيا، كانت ذرات الرمل تمتصُّ فقاقيعَ العَرقِ من فوق ذراعَيها وقدمَيها العاريتَين.

توقَّف ماسينجوا عن العزف فجأة، فتوقف الجميع عن الرقص، فبدا الأمر كأن زلزالًا قد توقف لكن الرعشات كانت مستمرة، وكذا صدى الإيقاعات المتكرِّر عَبْر وادي الأرض المنغمسة في الملذات، وكان موجيا وماريا يواصلان الرقص وبقية الحاضرين يُومئون ويدقُّون الأرض دون أن يتوقف التصفيق في المكان، كان الرقص بلا موسيقي كالنار المحترقة التي لا يغذِّيها الوقود، ففتح أحدُهم عينَيه ببطء ثم تبعَه آخر، وتوقَّف آخرُ عن دق الأرض وعن التصفيق، وهكذا حتى انتهى الأمر، ثم فتح موجيا عينَيه، وكذلك فعلَت ماريا، وتوقَّفا عن الرقص، وساد صمتٌ غريبٌ بضع لحظات مثل صمتِ الطفل الذي يكتشف نفسَه فجأةً في مكانٍ خطأ.

ضحك موجيا بمتعةٍ وإحساسٍ بالنصر والتخفيف عن الذات، وتبعه الآخرون بضحكاتٍ مختلطة، ثم ربَّت الرجال فوق كتفه، وحدَّقَت فيه النساء بعيونٍ ملؤها الرغبة، وكان تانيا أيضًا يضحك؛ فقد كانوا سعداء.

اثنان فقط لم يشاركا في ذلك الصخب؛ أولهما العجوزُ الذي كان نائمًا عند الحائط، والذبابة ترقُص فوق فمه المفتوح، وكان من العسير أن يتخيل المرء كيف يستطيع أن ينام في مثل تلك اللحظة، لكنه كان رجلًا كبيرًا وأصلع، كما أن تريسا لم تعُد تجلس فوق حجره. وثانيهما تريسا التي بدَت منعزلةً عن كل شيء، كانت تُحدِّق في غروب الشمس وهي مستندة على تانيا، وقد انتابتها فجأةً رجفةٌ هادئةٌ وقوية بلغَت ذروتها عند صدرها

وأكتافها، ولم تكن تعبأ بالحاضرين وضحكاتهم كما أنهم لم يكونوا مدركين ما بها؛ فلم يكن يسيرًا التعرُّف على ما يُقلِقها، ربما كانت خائفةً من غروب الشمس التي قد لا تشرق مرةً أخرى؛ فهي تخاف الظلام مثل كثيرٍ من الناس، وتخشى ما يحدُث في الظلام والنتائجَ التي يجب مواجهتُها حين تُشرِق الشمس ... من يدري؟

توقَّف الضحك، وساد الهدوء، وتفرقوا إلى جماعاتٍ يشربون ويتحدثون بهدوء وهم يمسَحون العرق من فوق وجوههم بأصابعَ قذرة، ثم ساد الظلام فدخلَت المرأة الشابة أو امرأة تانيا التي كانت مختفيةً طوال الوقت، وكانت تبدو مخمورةً رغم وجهها الهادئ، وبدأَت تجاهد في إشعال الفوانيس الثلاثة المعلَّقة فوق الخطَّاف الخشبي عند الحائط الطيني دون أن تتوقَّف عن محادثة نفسها.

تلألأ الضوءُ عَبْر الحجرة واختفَى، ثم تلألأ مرةً أخرى أكثر وأكثر، وسيارةٌ ما كانت تتوقف عند المدخل، فاندفعَت ماريا إلى حجرة الجلوس بعد أن كانت مختفيةً عند الحاجز مع موجيا، وصاحت: «يا أبناء الزنا، أيها الأوغاد.»

كانت ماريا تكره البوليس فهُرعوا جميعًا لإخفاء أنفسهم، وكذلك فعل العجوز الذي استيقظ فتلألأَت عيناه من الإضاءة، وركع ليُصلي، ثم نهض وراح يجري هنا وهناك باصطباك كالدجاجة حتى اختفى خلف الباب، بينما وقفَت ماريا بدون قلق ووضعَت يدَيها فوق خاصرتها في حالة انتظار، وكان موجيا يقف خلفها ممسكًا بالعصا، أما تريسا فكانت ما تزال مستندةً إلى تانيا دون التوقُّف عن التحديق إلى حين تغيب الشمس.

خرج من السيارة رجلان بنظارةٍ سوداء فضحك موجيا، ولم يقدر على إنهاء جملته حين قال: «إنهما ليسا من البوليس ولكنهما من موظَّفي الحكومة.» ظهر عندئذٍ المختبئون وهم يشعرون بالراحة، ثم استطرد موجيا: «كنتُ أقول دائمًا إن الجنسَ البشريَّ بأكمله يلتقي عند نقطتَين هما الجنس والموت.» فضحكوا جميعًا، وهكذا استقبلوا القادمين لكنهم شعَروا بالارتباك، وخاصة تريسا التي كانت غارقة في أفكارها وتأمُّلاتها فلم تتحرك بوصةً واحدة ... حاوَلوا أن يتمالكوا أنفسهم، وراحوا يتطلعون إلى الرجلَين بريبةٍ وكراهية، فلم يتلقَّيا الترحيبَ الكافي، ولم يُنادوا عليهما بلقب «السيد»، أو يقفوا في طابورٍ كما يحدُث في المكاتب الحكومية.

خلع أحدُهما نظارتَه، واكتفى بالنظر إلى تانيا، وبدا واضحًا أنه جيمس الذي قال بدهشة وكأنه وجد القَشَّة التي يتعلق بها: «لماذا نبحثُ عنكَ طَوالَ المساء؟»

ابتسم تانيا، ومد ذراعه بازدراء ليصل صديقَه بأولئك الناس الذين فقدوا الشعور بالراحة، والذين يحتقرهم جيمس بالنهار لكنه يبحث عنهم ويحلُم بهم في الليل. توقف الحاضرون عن الكلام وقد فقدوا سعادتهم، ربما لأنهم كانوا خائفين لما سوف يتفوَّه به موظَّفا الحكومة عن البطالة أو تطوير القرية، وربما خوفًا من الحديث عن الموت.

تحسَّس موجيا جيوبه، وأخرج نقودَه الأخيرة، ثم طلب كوبًا من البيرة لكلَيهما، فانحنيا له بامتنان، وراحا يشربان بسرعة دون أن يتوقَّفا بين رشفة وأخرى، ودون مشاركة لأحد، وكأنهما لم يشربا طوال اليوم، ثم أخرج كلٌّ منهما منديلًا من جيبه وجلس عليه. استيقظَت تريسا من تأملاتها، وبدأَت تُحدِّق في تلك الندبة الواضحة تحت عينَي جيمس، ثم ضحكَت بصوتٍ عالٍ فاتجهَت كل الأنظار إليها.

طلب جيمس بيرة لكل واحد منهم لكن أحدًا لم يمتَنَّ أو ينحنِ كما فعل هو وزميله، وإنما شربوا بنفس الطريقة؛ لأنه من العيب أن يرُد المرءُ الهدية، كان تأثير الشراب واضحًا، وكلما زاد التأثير ضاقت الفجوة بين المجموعتَين، وراحوا جميعًا يتحدثون بأصواتٍ عاليةٍ عن هذا وذاك، وكان صوتُ العجوز أعلى الأصوات وهو يُعاوِد الحكي عن تاريخه المكسور أو تاريخه الوهمي، وبدا أن أحدًا لا يسمع، بما فيهم تريسا، التي كانت راقدةً حينئذٍ فوق حجْرِ موجيا.

لعبتَ البيرة برأس جيمس فانطلق لسانه، وراح يمثل هاملت مرة ويستشهد بالإنجيل مرةً أخرى، ثم توقف فجأة، وظل يستمع باهتمامٍ لقصة العجوز الشجية التي انتهت بالدموع، توجَّهَت تريسا نحو العجوز وركعَت تحته في محاولةٍ لإيقافه عن الكلام؛ لأنها تعرف مدى الجرح الذي أصابه من الحديث، خاصة وأنه لم يسبق أن أخبر أحدًا بقصة مجده وسقوطه، كما كانت تعرف أن المرء لا يستطيع أن يجلدَ نفسَه ويعيش، لكنه رفض التوقُّف عن الكلام، وقال مداعبًا شعرها: «ابنتي العزيزة ... يا ملاكي ... إنه يوم حسابي، ويجب أن أسدِّد ديوني، فدعيني إذن أتكلم، وسوف أقول كل شيء ... كل شيء، ويمكنك أن تكوني سيدةً لي، أو يمكنك القول بأنه كان يعرف المكان الذي تتحطَّم فيه السلسلة، كما تستطيعين أن تتساءلي عن السبب في ضرورة أن يموت في ماخور.»

شعَروا جميعًا بالدهشة والذنب ثم استطرد: نعم ... تستطيعين القول بأنه قال الحقيقة أخيرًا، وأنه مات حكيمًا ليس من أجل الحكمة ذاتها وإنما ليكتشف فوق سرير الموت المكانَ الذي تكسَّرت فيه السلسلة، وليعرف كيف تكون الأشياء ... إنه لعَزاءٌ كبير.»

وقفوا حوله كما يفعل الناسُ عند وقوع حادثة، وجفَّفَت تريسا دموعَه بنهاية فستانها، وقالت متوسلة: «أرجوك يا بابا لا تفعل ... لا تفعل.»

ظل يتحدث ويُقلِّب الأفكار في رأسه دون أن ينسى أية تفاصيل، حتى إنه تذكَّر لونَ فستانِ الفتاةِ التي خدَعَها بالحب في آخر مرة، وأضاف كيف أنه عاش حياةَ الجنسِ التي كان يتمتَّع بها الشعراء والموسيقيون في القرن الحاديَ عشَر بفرنسا وشمال إيطاليا.

توقَّف قليلًا من التعب ثم قال: «يجب على المرء أن ينظر إلى الوراء للوقوف عند بعض التفاصيل، وهذا ما فعلتُه بالدموع. لا أندم على شيء.»

بكَى كثيرًا، وكان من اليسير سماعُ تنهُّدات الحزن في أرجاء الحجرة، وانتاب الجميعَ إحساسٌ بأن العجوز كان يتحدث عن حياتهم الخاصة، فتلاشى تأثيرُ البيرة، وظلوا يُحدِّقون إلى الأرض وإلى العجوز، وأغلق البعضُ عيونَه مُحدِّقًا داخل نفسه، لكن جيمس قال: «إن العالم عبارةٌ عن كرسيٍّ مستدير حيث يجلس الكبار، ويعبثون بشواربهم الرمادية حتى تتقرح جلودهم، ثم يستديرون لسرد ماضيهم ... يا له من تعبٍ أن يجلسَ فوق الكرسي ويعبثَ بشاربه عندما يكون أصلع و...»

تطلَّعوا جميعًا إلى جيمس بدهشة، وشعَروا بأنه إما أن يكون مجنونًا أو أنه يُسيء إليهم، ففقَد موجيا أعصابه ودفَع جيمس بأكتافه إلى خارج الباب مثل كلبٍ وقح، وتبعَه زميله، ثم انطلقا بالسيارة بدون إضاءة أنوارها الأمامية.

نظروا إلى تانيا بعيونٍ ملؤها الاتهام لكون جيمس رفيقًا له، فشعَر تانيا بالذنب، وأصابت العجوزَ حالةٌ من الغيبوبة، فحاولَت ماريا وتريسا نقلَه إلى الفِراش؛ لأن الجميع يجب أن يموتَ فوق الفِراش، وسارع تانيا بمساعدتهما ليُخفِّف عن نفسه وطأة الذنب.

عاد تانيا وتريسا وماريا إلى حجرة الجلوس، وبدأ الحاضرون في الخروج واحدًا بعد الآخر ببطء وهدوء، حتى اختفَوا جميعًا في الظلام منكسرين، وأكثر حزنًا مما جاءوا؛ إذ لم يُشبِعوا رغباتهم العنيفة، وقد أصابهم الهزال من الخوف الكامن في قلوبهم كل الوقت، والذي فجَّره حديثُ العجوز، وكذلك خرج موظَّفا الحكومة دون تحقيق رغباتهما المكبوتة، لكن أحلامهما لم تتحطم على أية حال كالآخرين، ولم يتملَّكْهما الندم والخوف.

كان تانيا آخر من غادر المكان وقد أصابه الارتباك الشديد حتى إنه لم يسمع ماريا وهي تقول له: «طابت ليلتُك.»

توقَّفَت تريسا عند الباب ناظرةً إلى ماريا وتانيا في محاولة لأن تفهم شيئًا، ثم تبعَت تانيا في الظلام وهي مخمورة تمامًا، دون أن يدرك تانيا، الذي بدأ في السير في خطٍّ مستقيمٍ لا يعرف نهايتَه.

سمع صوتًا يقول: «أردتُ أن أقول ...»

كانت الأفكار تُسيطِر عليه فهزَّ رأسه، ونظر خلفه، لكنه لم يُبصِر سوى الظلام، وسمع نفس الصوت مرةً أخرى: «أردتُ أن أقول بأنني لا أستطيع الحضورَ معك هذه الليلة رغم أنني أتمنَّى ذلك، لكن العجوز يموتُ ويحتاجُني إلى جواره، وعلى أية حال فإنني أريدُ أن أراك مرةً أخرى، وفي أسرع وقت.»

سارعَت بالعودة، وبعد لحظةٍ قصيرةٍ أبصر تانيا نقطةً سوداءَ تختفي في ضوء البيت الأصفر، ثم وقف بعض الوقت محاولًا أن يفهم تلك الكلمات وهو يكرِّر بصوتٍ عالٍ: «أريدُ أن أراك مرةً أخرى، وفي أسرع وقت.»

٥

كانت العائلة كلها تلتف حول والد تانيا، كما كان الناس يحتشدون حول الرجل العجوز في منزل ماريا. وعندما وصل تانيا كان والده يتألم ويتنفَّس بصعوبة وكأن العالم بأَسْره يجثُم فوق صدره المصاب بالسل، رفع ذراعَيه بيأس ولوَّح بهما كمن يتخلَّص من عبءٍ ثقيل أو شيطانٍ رجيم، ثم راح في نوبة سُعالٍ متقطِّع. دخل تانيا من الباب الصغير لكوخ أبيه فتجمَّعَت العائلة حوله ليس لاتهامه وإنما اعتقادًا منهم بأنه سيُنقِذ الرجل المريض ... ربَّت تانيا فوق كتف أمه التي شعَرَت بحضوره، فاستطاعت أن تفهَم، وتخلَّت عن مكانها؛ حيث جلس تانيا عند قمة السرير، ثم وضع رأس أبيه فوق حجْرِه.

في ضوء الكيروسين المحترق لاحظ تانيا أنهم جميعًا يبكون.

همسَت الأم للأولاد: «اذهبوا الآن للنوم يا أولاد ... اذهبوا للنوم ... إن تانيا موجود.» أمسك الأخُ الأصغَر بيدَيها، وتبعَها بقية الأولاد. ألقت أونيا نظرةً رحيمةً إلى أخيها، وربَّتَت فوق كتفه وخرجَت، ثم عادت بعد دقائقَ قليلةٍ ومعها طاسةٌ من اللحم وزجاجةٌ مليئةٌ باللبن الرائب وبعض البطاطس المسلوقة التي يُحبها تانيا كثيرًا، لكن شهية لم تكن قابلةً للأكل في مثل هذه اللحظة. قطعَت أونيا اللحم إلى قِطعٍ صغيرة وناولَتْه في فمه مع قِطعٍ من البطاطس، ثم قدَّمَت له زجاجةَ اللبن، وكانت تودُّ لو تمضغُ له الطعام إذا ما أراد ... مضَغ تانيا الطعام، وابتلعَه بطريقةٍ ميكانيكية، وقد ساعده اللبن في ابتلاع البطاطس واللحم، ثم هزَّ رأسَه علامةَ الشبع، فجمعَت أونيا الأواني نصف الفارغة، وألقت فجأةً نظرةً سريعة إلى أبيها النائم، ونظرةً أخرى طويلة إلى أخيها، ووضعَت ذراعَيها فوق كتفه، ثم تنهَّدَت وبكت قليلًا، وسارعَت بالخروج دون أن تقول له تحية المساء.

ساد الظلام، وظل تانيا يُحدِّق في الجمرات حتى تلاشت تمامًا، وكانت عيناه مثبَّتة عند النقطة التي تلاشى عندها آخر ضوء؛ حيث أصبح الظلام حالكًا، فلم يشعر بفرقٍ كبيرٍ

بين فتح عينَيه أو غلقِهما، لكن عقله كان يقظًا، وكان يفكِّر بقلق ورأسُ أبيه ما يزال فوق حجره يرتعش من ضعف اللحظات الأخيرة.

كان تانيا يتصبَّب بالعرق رغم برد الليل، أغلق عينَيه، وأحكم قبضته في انفعال، وبدأ عقلُه يعود للوراء وكأنه يبحث عن بذرةٍ مفقودةٍ في الأعشاب المحترقة ... تذكَّر نفسه حين كان ولدًا صغيرًا حيث كان بمقدوره اكتسابُ تجاربَ وخبراتٍ عديدة، واستطاع أن يتذكَّر ذلك اليوم القاسي في المدينة حين اضطُرَّ للذهاب مع امرأةٍ لعوب، وبدلًا من أن يدفع لها راح يضربها ويمزِّق ثيابها؛ فالإنسان لا يعرف السبب في إصابته بالسل الرئوي.

وظل يطوف بذهنه هنا وهناك بعيونِه المغلَقة والعَرقِ المتصبِّب منه، لكنه طَوالَ الوقت كان يلاطف رأس أبيه الهادئ رغمًا عنه، فتذكَّر ذلك اليوم منذ سنواتٍ عديدةٍ حين استيقظ في حالةٍ سيئةٍ بعد وفاة أمه بسنواتٍ قليلة، وكانت رقبته تؤلمه، وأمعاؤه منقبضة، وعقله مضطربٌ من ذلك الحُلم الذي رأى فيه أمه تندفع في اتجاهه، وهو يرقد متوسلًا بعد أن سقط على الأرض، فشَعَر بأنه مشدود مثل كلمة في بدايةِ جملةٍ مجهولة، وذهب في الصباح مشوَّشًا حيث كانت الأمطار والأرض المبلَّلة بالطين، وكان عليه أن يسير ميلَين كالمعتاد للوصول إلى المدرسة التي التحق بها منذ أربع سنوات ... كان المطر والرعد، لكن تانيا مضى في طريقه وقد حرَّر نفسه من أية أفكار أو قلاقل، حتى إنه لم يشأ أن يقطع ورقة الموز لحماية نفسه من الأمطار، غير أن سؤالًا واحدًا ظل يشغلُه طَوالَ الطريق: لماذا يذهب أساسًا إلى المدرسة؟ لماذا المدرسة؟ ولِمَ لا يذهبُ إلى السوق أو الغابة أو إلى ذلك الكوخ الذي يسكُنه الأجانب والمصلون الذين يتضرعون من أجل المطر؟ ... هل للمدرسة ذلك الطابعُ المغناطيسيُّ الخاصُّ بالنسبة لأولئك الذين ضاعوا في الصحراء؟

كانت الأمطار تُبلِّل أرض المدرسة غير أن لونها كان بنيًّا لمرورها على سقف القش المتعفِّن، تأخَّر تانيا عن المدرسة، فكان عقابُه أن يقف عند الركن حيث الأمطار أكثر تدفقًا، لكنه لم يشعر بها، وكان المدرس شابًّا هادئًا وجذابًا بطريقةٍ خاصةٍ وقصيرًا بلون الفول السوداني، وكان ذائع الصيت لمروءته وحماسه الوظيفي، ربما لإخفاء حقيقة أنه لا يجيد فعل أي شيءٍ آخر، وقد تباهي ذات مرة أنه عضو في مؤسسة منتجي ومستهلكي المعلومات، سأل تانيا في درس الحساب عن الجذر التكعيبي للجذر التربيعي لواحد: ٩ وبدأ كأنه يسأل تانيا عن لون الله أو اليوم الذي سيموت فيه، فنظر إليه تانيا مرتعشًا ليس من الخوف وإنما من البرد، وأجاب بهدوء بأنه لا يعرف، وأراد يومها تانيا أن يضيف بصوتٍ عالٍ أنه لا يبالي بالجذور التكعيبية، لكنه أصبح مشغولًا بملابسه المبلَّلة التي التصقَت بأجزائه

الأمامية، وراح يُعدِّل من وضعها، فتعجَّب المدرس من هدوئه وعدم اهتمامه، وظل يهذي بينما التصقَت ملابس تانيا بمؤخرته، لكنه لم يُبالِ هذه المرة.

كان اللوح الحديدي المتجعِّد يحمي المدرس من الأمطار البنية اللون، ورغب تانيا أن يحكيَ حُلمَه للمدرس والفصل، وتمنَّى لو أن هناك مدرسةً يستطيع فيها الحديثَ عن أحلامه وأحاسيسه التي يشعُر بها الآن وقد التصقَت ملابسُه بجسده من الأمطار ... ماذا ينبغي أن يفعل بالجذور التكعيبية بعد حُلمه بمجيء أمه كي تُحرِّره من نكبته؟

انتهى الدرس، وكان المدرس يمشي إلى جوار تانيا وهو يهزُّ رأسه بيأس؛ فلقد أدرك أنه أحدُ أولئك الأولاد الذين لا يصلُحون للمدرسة ... قال المدرس لتانيا بأنه سيطرُدُه من المدرسة إذا لم يتراجع بعيدًا عنه. وأوشَكَ تانيا على القول بأنه لن يعود إلى ذلك المكان مرةً أخرى، لكنه كان مشغولًا بمراقبة الأمطار النظيفة التي تتساقط بالخارج.

اتجه تانيا مباشرةً من المدرسة إلى قبر أمه الذي لم تنبُت الزهور فوقه بعدُ، وجلس فوق الطين رافعًا يدَيه فوق الرابية التربية، ثم راح يبكي فاختلطَت دموعُه بقطرات المطر المتساقطة فوق الرابية ... بعد توقُّف الأمطار اتجه نحو البيت وقد قرَّر أنه لن يعود أبدًا إلى المدرسة؛ إذ ليس بمقدوره أن يتعلم الجذور التكعيبية بعد أن بكَى فوقَ قبر أمه، لقد حرَّرَته الدموع من الطفولة وحب المعلومات عن القسمة والضرب أو الثورة الصينية، لقد تحرَّر بدموعه التي تساقطَت فوق القبر من الأحاسيس العادية كالأمنيات والاهتمامات ... ماذا كان سيحدث لو أن أمه كانت ما تزال تعيش فوق الأرض وفمها مليء بالطين؟ ... لقد قالت أمه ذاتَ مرةٍ إنها لا تخشى الموت ولكنها تخشى الغياب بعد الموت، وتخاف ذلك السكونَ الذي يتبعُ النار المُطفَأة ... إن الميول والرغبات ترقُد في النهاية تحت القبر المتجمِّد قبل أن تنالَ حظَّها من التحقيقِ فما فائدة التعليم إذن، إن المتعلمين والناجحين يتجنَّبون النتائج الحقيقية ومعظمهم سيئون.

أثناء سيره كان يُتمتِم بالصلاة ليس لأحدٍ أو إلَهٍ بعينه؛ فأعظمُ الصلواتِ لا تتوجَّه إلى إلَهٍ أو شخصٍ بعينه، وإنما تخرُج ببساطةٍ كالرغباتِ والأمنياتِ المفكَّكة التي لا تتحوَّل أبدًا إلى حقيقة.

فشل في استعادة بعض التفاصيل؛ فالإنسان غالبًا ما يتذكَّر فقط الصوتَ الداخليَّ في حلقِ امرأةٍ مارس معها الحب، لكنه لا يتذكَّر لونَ فستانها. وعند اقترابه من كوخ أبيه لاحظ أن بومتَين أو ثلاثَ بوماتٍ تُغني عند شمال الكوخ، وشعر بحفيفِ أوراقِ الموز التي يسقفُون بها الكوخ، ثم تحسَّس طريقه في الظلام بحثًا عن زجاجة ماء؛ لأنهم دائمًا

يقدِّمون الماء لأي شخصٍ يُوشِك على الموت؛ لأن المُوشِكين على الموت لا بد أن يفعلوا شيئًا ما، وطلب الماء هو أقل هذه الأشياء ... تذكَّر تانيا امرأةً قتلَها اليأسُ بعد وفاة ابنها الوحيد حين قالت: «لماذا، إن ابني الصغير لم يكَد يشرب الماء الذي أمسكتُ به أمام شفتَيه، لماذا تحدث مثل هذه الأشياء أيها الرب؟ ولماذا أسألكَ وأنتَ لا تعرف الإجابة؟» ثم انخرطَت في بكاءٍ مرير.

أحضَر نانيا زجاجةَ الماء، وفي طريق عودتِه ضرَب رأسَه بالعمود، وكانت شفاه العجوز جافةً وميتةً لكنه شرب بسرعة من يد ابنه وعاد للنوم فلم يكن الماء مرًّا ... شرب تانيا من نفس الزجاجة، ووضع شفتَيه في نفس المكان الذي وضع فيه أبوه شفتَيه، ليس لأنه يشعُر بالعطش، ولكن لأنه لا يعرف السبب، ربما لأن أباه شرب كثيرًا دون أن يكون عطشانًا، أو لأن ابنه هو الذي قدَّم له الماء.

بدأ تانيا يتساءل مرةً أخرى بينما رأسُ والده فوق حجره، غير أنه لم يعُد قادرًا على التفكير بشكلٍ منتظم.

كان البومُ يصيحُ وكان رأسه يؤلمه، وتحوَّل النسيم في الجو إلى رياحٍ موسمية، فشعر تانيا بالنوم يغالبه بينما رأسُه مستندٌ إلى الحائط ورأسُ أبيه راقدٌ فوق حجره.

٦

هكذا أمضى تانيا ليلته في الظلام ... دخلَت أونيا وهي تقود أم تانيا بيدها، والتي هي جدَّته في الحقيقة، كانت تحمل طاستَين من حَسَاء الموز لأولادها المرضى، تحسَّسَت جبهةُ تانيا، وشعَرَت بالجرح الذي أصابه في الليلة الماضية، فقفز تانيا من الألم، ووقف بعيدًا عن فِراش العجوز خطوةً أو خطوتَين، دون أن يعرف ما حدث، بينما كانت المرأتان تجاهدان لوضع العجوز فوق الفِراش ومنعه من السقوط ... وقف تانيا ينظر إليهما وهو يمسَح بأصابعه الدمَ الناتجَ من الجرح الذي لم يؤلمه بالأمس، نظر إلى الدم في يدَيه وكأنه يشاهد الدم لأول مرة ... كان ثمَّة رسمٌ غامضٌ ينعكس فوق الدم.

كانت المرأتان مشغولتَين، وراحت الجدة تُطعِم الرجل المريض بالملعقة الخشبية ببطء بينما كانت الأخت تُرتِّب الفراش وهي تشرَح لجدَّتها المتنهِّدة ما حدث ... التقط تانيا قطعةً مكسورةً من المرايا من تحت السرير ومسحَها، ثم نظر إليها متطلعًا إلى نفسه، لم يكن قد نظر في مرآةٍ منذ زمنٍ بعيد، فبدا الأمر وكأنه ينظر إلى صورته التي رسمَها شخصٌ آخرُ بعد سنوات، كان كبيرًا جدًّا في المرآة ويبدو عليه التعب، فتفحَّص رأسه بعصبية ولم يكن قد أصابه الشيبُ بعدُ.

كان العجوز راقدًا في الشمس وتحتَ رأسه وسادةٌ من ورق الموز قد صنعَتها أونيا، وغطَّتها ببطانيةٍ قديمة، وكان أحسن حالًا في ذلك الصباح رغم أنه لا يزال عاجزًا عن الكلام والأكل، ففرحَت أمه بعودة الحياة إليه، ورغم قلة كلامها إلا أنها راحت تتحدَّث إلى أونيا وهي تنظِّف الإناء تحت ظلال شجرة الموز قائلة: قلتُ لكِ يا ابنتي إن على الإنسان ألا يفقدَ قلبه أبدًا، ولا يفقد الأمل في الله أبدًا؛ فها هو يكاد يمشي مثلما كان طفلًا قويًّا، لقد كان طفلًا قويًّا.

داعبَت وجه ابنها بعنايةٍ شديدة، وانتزعَت الملابسَ التي تُغطِّيه حتى خصره برقة وحب، من أجل أن تُعرِّض جسده للشمس، ثم استطردَت: نعم يا ابنتي، لقد كان قويًّا حتى إنه شَد أثدائي ذات يومٍ وهو يرضع.

ضحكَت، فظهر فمها الخالي من الأسنان، وأضافت: كانت يا ابنتي أيامًا طيبة، رغم ما كان من ألمٍ كثير، لكن الألم يصبح لا شيء حين يكون الإنسان سعيدًا ومتحقِّقًا.

تحسَّسَت ثديها الفارغ، وهزَّت رأسَها قائلة: لا … لم يكن الألم ألمًا في تلك الأيام، ولقد كان والده قويًّا مثله ومفعمًا بالرغبة والعنف، وأحيانًا كان يرضع مني حين أسمح له؛ فالرجال كلهم أطفال، هل تعرفين؟

كانت أونيا ما تزال تُنظِّف الإناء وتختلسُ النظر إلى أخيها، فلم تستمع إليها جيدًا، لكنها أجابت ببساطة: نعم يا أمي، إنهم كذلك.

قالت الجدة: يجب إطعامُ أولادنا جيدًا اليوم، لماذا تعتقدين أن أباك سيموت؟ لقد أخذ الله بيده وأقسَم أنه سينهضُ ويمشي قبل الانتهاء من طهي الطعام، ويجب أن تعرفي أن الناس الذين على وشك الموت يستيقظون وهم جائعون جدًّا … اذهبي يا ابنتي إلى بيت ميريشو، واطلبي من جاجاوا أن تُعيرَنا دجاجة، وقولي لها إننا سوف نردُّها لها غدًا بعد أن تذهبي وتبيعي الذرة، وعندئذٍ نستطيع شراء دجاجةٍ أخرى؛ لأنه يجبُ أن نطعم أولادنا جيدًا اليوم. وهكذا لن يستطيع أحدٌ القول بأن نساءهم قد تخلَّت عنهم. ارتجفَت أونيا من كلام جدَّتها عن جاجاوا وأجابت: أوه … لكن جاجاوا ماتت منذ عامَين كما تعرفين يا ماما.

– أوه، يا إلهي … نعم، ماذا حدث لي يا ابنتي؟ هل أصبحتُ عجوزًا إلى هذا الحد؟

– لا يا أمي؛ فنحن جميعًا ننسى أحيانًا.

ساد الصمت مثلما يحدُث دائمًا عندما يذكُر شخصٌ ما أحدَ الموتى، ثم استدارت الجدَّة، ووضعَت يدها فوق وجه ابنها، وكانت أونيا ما تزال تنظر إلى تانيا الجالس في مواجهة الغرب، واضعًا رأسَه بين فخذَيه، كان يلعبُ بالتراب تاركًا إياه يتساقط ببطءٍ بين أصابعه كما تتساقط سنواتُ العمر، ثم يلتقطه من جديد، ويجعله يتساقط من بين أصابعه مرةً أخرى وأخرى بطريقةٍ متأنيةٍ ومنتظمة، فعَرفَت أونيا أنه إما يتأمَّل أو أنه يشعُر بالضياع … لم يكن تانيا يتأمَّل أيَّ شيء، لكنه كان ضائعًا بلا حدود، حتى إنه لم يسمع جدَّتَه وهي تتحدث؛ فهناك أوقاتٌ ننظر فيها دون أن نرى، ونسترقُ السمعَ دون أن نسمع … ربَّتَت أونيا فوق كتف تانيا، وطلبَت من الأولاد أن يكُفُّوا عن الضجيج أو يلعبوا بعيدًا، ثم راحت تُعِد وجبةَ الغداء التي يجب أن تكون وجبةً جيدة، تناولَت الإناء من ركن

الكوخ، وأرسلَت أخاها لشراءِ دجاجةٍ من بيت ميريشو، بعد أن ناولَته ثلاثة شلنات كانت قد وفَّرَتهم خلال عامَين، على أمل أن توفِّر المزيد لتشتري فستانًا جميلًا، كانت تعرف أنها فتاةٌ جميلة، وأنها ستجد زوجًا طيبًا في الوقت المناسب، كانت تأمُل في ذلك منذ عامَين على أمل أن يستقر تانيا ويعتني بالصغار، لكنه لم يستقر حتى الآن، كما أن والدها يُوشِك على الموت، فلا داعي إذن لارتداءِ فستانٍ جديد.

قالت العجوزُ وهي جالسةٌ في الظل مع الرجال: تمنَّيتُ لو يُوجَد لحمٌ اليوم.

قدَّمَت لها أونيا الطاسة بأكبر جزء من الدجاجة؛ فهي دائمًا تنال الجزء الأكبر ليس لأن معدتها كبيرة، أو لأن لها شهيةً كالصغار، وإنما لأنها الأكبر سنًّا. وعندما كان يعترض الصغار كانت أونيا تقول لهم إنها عجوز وستموتُ قبلكم، أما أنتم فإنكم تملِكون الفرصة لمزيد من الطعام، بالإضافة إلى أنه لولاها لما كنا نحن.

قالت أونيا وهي تقدِّم الملعقة إلى جدَّتها: يُوجَد لحم يا أمي ... دجاج.

قالت العجوز وفمها مملوء: لكن جاجاوا ماتت كما قلتِ.

أجابت أونيا بأن ثمَّة جاجاوا أخرى، لكن المرأة العجوز لم تسمَعها؛ فقد كانت مشغولةً بطعامها الذي راحت تبتلُعه لعدم وجود أسنان.

ملأَت أونيا الملعقة بالمرق وقِطعٍ صغيرةٍ من الدجاج، وراحت تُطعِم الأب في فمه، بينما أمسك أخوها الأصغر بالطاسة.

هزَّ العجوز رأسه حين أحسَّ بالشبع، فتناولَت أونيا طاسةَ تانيا، وتوسَّلَت إليه أن يأكل، وقالت الجدة المشغولة بطاستها: تناوَل طعامَكَ يا ابني، إنه طعامٌ جيد وقد تماثل أبوك للشفاء، تناوَل طعامك من يد أختك الرقيقة؛ فهي أفضلُ طاهيةٍ في كاشا وانجا، وتذكَّر أن المعدةَ المليئةَ لا يصيبُ صاحبَها الندم.

انحنَت برأسها وعادت لطاستها دون أن ترى رأسَ تانيا وهو يهتزُّ بالرفض، تحرَّكَت أونيا بما تبقَّى معها من الشلنات الثلاثة إلى الجانب الآخر من الشجرة، حاملةً الإناء فوق رأسها، وأمسكَت بجناح الدجاجة، لكنها سرعان ما أعادته إلى مكانه قبل أن يلمس شفتَيها، وراحت تبكي في هدوء ... مضى تانيا نحوها وبدأ يأكل بطريقةٍ ميكانيكية، ويمضغ عظام الدجاجة والذرة والمرقة في وقتٍ واحدٍ وكأنها أعشابٌ دوائيةٌ ذاتُ مذاقٍ لاذع ... جفَّفَت أونيا دموعها وبدأَت تأكل ببطء دون أن يفارقها الشعور بالأذى العميق، بعد أن قدمت كل ما عندها دون أن يشكُرها أحد؛ فهل باستطاعة المرء أن يفعل أكثر مما يستطيع؟

تحرَّكَت الشمس نحو الغرب فاكتسى الكوخ بظلال أشجار الموز، وقد تحرك الجميع للوراء بحثًا عن الشمس القليلة بين الظلال، فيما عدا تانيا الذي ظل في مكانه ... همسَت أونيا لأمها عن حالة الرجل المريض الذي كان وجهُه مشرقًا في الصباح وأصبح الآن يرتجف ولا يقوى على الكلام، كان يُحرِّك شفتَيه بوهَن ولم يعُد قادرًا على طلب الماء ... جلست الأم عاقدةً حاجبَيها وهي تشهَد خيبة آمالها مثل شخصٍ يسحَب ابتسامةً قدَّمَها بطريق الخطأ إلى عدوه.

جلس تانيا كما كان تاركًا الرملَ يتسلل من بين أصابعه، ولعق شفتَيه وكأن شيئًا لا يحدُث حواليه، شعَر بألمٍ في أردافه فانحنَى على كوعه بعض الوقت ثم عاد إلى وضعه ... كان ينظر إلى بقية العائلة وكأنه ينظر إلى حبة من الذرة فوق الأرض.

اندفعَت الأختُ الصغرى إلى الداخل ولم تكن تدري بما يحدُث، لكنها كانت شغوفةً لتسليم الرسالة التي تحملها.

قالت: شخصٌ ما ينتظرك في الطريق يا أخي الأكبر، إنها امرأة، فتاةٌ شابة وأخبرَتْني أن الأمر عاجل، وكانت تبكي.

كرَّرَت ما قالَته مرتَين فعَرفَت أن تانيا لم يسمعها، ثم هزَّت رأسه وأخبرَتْه بالرسالة. هزَّ تانيا رأسه وقال: إيه ... إيه.

كرَّرَت الطفلة ما قالَته مرةً أخرى بسرعة وغضب، وقالت وهي تعود إلى حيث كانت تلعب إن على تانيا أن يستخدم أذنَيه.

جَرجَر تانيا قدمَيه ببطء وتثاقُل، ومضى نحو المدخل، لكنه عاد وتناول زجاجة الماء، وقدَّمها لأبيه الذي لم يشرب، أعطى الزجاجة لأخيه، وتقدَّم نحو المدخل دون أن ينظر خلفه.

كانت تريسا تقف باكيةً خلف أحد الروابي.

كانت تبكي بشدة ولا تقول شيئًا.

٧

وضع تانيا ذراعَيه حول تريسا بحنان ورفق، ولم تكن قادرةً على الوقوف فأمسَك بها وساعَدها على الجلوس، كانت تُواصِل بكاءها، وحين توقفَت تحسَّسَت وجهَه بيدَيها، وظلت تنظر إليه عن قرب وقالت: لقد مات، مات ظهر اليوم، أوه ... يا له من شيء فظيع! لقد بقينا معه الليل بطوله، لكنه فقَد عقلَه في الصباح، وراح يَهْذي عن هذا وذاك ... لماذا قال بأنني قتلتُه حين جلست فوق حجْرِك بالأمس؟ لقد قال.

بكت مرةً أخرى لكنها تماسكَت بسرعة، ونظرَت إلى تانيا بعيونٍ متوسِّلة وهي تضيف: هل تعتقد بأنني قتلتُه حقًّا؟

قال تانيا وهو ممسِكٌ بها كما كان يُمسِك بالرمال المتسلِّلة بين يدَيه منذ لحظاتٍ مضت: لا ... أنت لم تقتُليه؛ فلا أحد يقتل أحدًا، ولكن الناس تموت لأنهم يريدون الموت، أو لأنهم مُرغَمون عليه.

لم تشعُر تريسا بالاطمئنان، وقالت: لو بقيتُ فوق حجْرِه لما مات.

أجاب تانيا ببساطة والتراب ما يزال يتسلل من بين أصابعِ يده اليسرى: ربما! جلسا بعضَ الوقت ثم نهضَت تريسا فجأة وكأنها قد برأَت تمامًا، حدَّقَت في تانيا وقالت: يجب أن ندفنه الليلة؛ فنحن في موسم الحرارة، والذبابُ كثير؛ فربما تتعفَّن جثَّته إذا انتظرنا حتى الصباح، أرجوك أن تأتي لمساعدتنا أنا وماريا وموجيا.

كان الجو حارًّا، فأصبحت المهمة شاقة بالنسبة للرجلَين اللذَين عملا بهدوء وبدون طقوس أو حتى عزَّاف، بينما كانت تريسا وماريا تجلسان تحت ظل الشجرة لاهثتَين ومليئتَين بالعَرق ... غَرِق العجوز في الحفرة ببطء حتى نهايتها دون أن تتوقَّف تريسا وماريا عن البكاء، وكانت تريسا تُردِّد وكأن شخصًا ما يضربها فوق معدتها: أوه ... أوه.

انتهى الرجلان من عملهما دون أن يتبادلا الحديث، ثم مسَحا يدَيهما من التراب، لكنهما لم يتذكَّرا وضعَ علامةٍ فوق القبر كي يتسنَّى للناس إحناءُ رءوسهم حين يَمضون بجواره، كنوعٍ من الذكرى الوقور للميت … لكن النساء لا تنسى أبدًا مثل هذه الأشياء، نهضَت ماريا ودحرجَت حجرًا كبيرًا حتى وصلَت به إلى قمة القبر، بينما كانت تريسا قد أسرعَت إلى المنزل لإحضار القناع البرونزي للرجل الميت الذي كان مُعلقًا فوق الحائط لتدفنَه معه، كما يضعون رمح الجندي الشهيد في القبر … قطعَت كلٌّ من ماريا وتريسا فرعًا من الشجرة وغرَزَتاه في الأرض إلى جوار الحجَر الكبير، ووضعَتا القناع البرونزي فوقه، ثم تبعَتا الرجلَين إلى المنزل.

ضحك الناس الذين مرُّوا بالقرب من قبر العجوز، واعتقدوا أنها إحدى دعابات «موتيتا»، مهرِّج القرية، أو أي شخصٍ آخر.

انتشرَت حكاية التربة التي يعلوها القناع، فضحك كل الناس في القرية، وكذلك أم تانيا التي كانت حزينةً طوال اليوم. وبعد أسابيعَ قليلةٍ أشاعوا بأن العجوز المجهول لم يمُت، وإنما حَرقَ بطانيتَه القديمة، وتركَ قناعَه هناك، ثم انتقل إلى قريةٍ أخرى في الشمال.

بعد سنواتٍ كانوا يشيدون كنيسةً كاثوليكيةً صغيرةً عند مكان القبر، وتلاشى القناعُ البرونزي وسط فروعِ الشجرةِ الكبيرة، وكان الأب الكاثوليكي الودود بذقَنه الذهبي يقول: يُوجَد الكثيرُ الذي يُمكِن اكتشافُه في أفريقيا؛ فهذه الشجرة تنشأ من أعماقِ حضاراتٍ أفريقيةٍ عديدة، وتُعَد رمزًا وشاهدًا على الحقيقة، نحن نبني الكنيسة هنا للتوسُّل والرجاء.

عندما عادت تريسا وماريا إلى الكوخ كان الرجلان ينظران إلى أسفل وما زال العرق يتساقط من جسدَيهما المتعبَين، فأحضرَت ماريا طاسةً من البيرة لكلَيهما؛ لأن الحلق يكون جافًّا بعد الموت، شرب موجيا طاستَه بسرعة وعاد ينظر إلى أسفل، بينما هزَّ تانيا رأسه بالرفض، فقدَّمَت طاستَه إلى موجيا، وشربَت هي طاستَين.

سارع تانيا بالذهاب إلى بيته دون أن يقول شيئًا، فهبَّت تريسا واقفة، وراحت تتبعُ خطواتِه كالكلبِ الجائعِ الذي يتبعُ قطعةً من اللحم.

اقتربَت منه وقالت: خذني معك أرجوك؛ فلم أعُد قادرة على البقاء مع ماريا أكثر من ذلك، لا أستطيع العيش في منزل الموت هذا، وليس لي مكانٌ آخر أذهب إليه … خذني معك أرجوك، وأريدك أن تتزوَّجني حتى ولو بدون مهر أو أي شيء، لكنني سأغسلُ قدمَك كلَّ صباح ومساء، كما أنني أعرف طهي الطعام، وأستطيع طهي الموز جيدًا؛ لأن أمي علَّمَتني قبل أن تموت … سأجعلُ فِراشكَ دافئًا، وسأعتني بتدليك ظهرك عندما تتعب … لقد

رأيتُ اليوم أختَك الصغيرة، وربما لك غيرُها من الإخوة والأخوات، سوف أعتني بهم أيضًا وبنظافتهم، وسوف أرتقُ ملابسهم؛ فأنا أعرف مثل هذه الأشياء جيدًا، كما أنني سأقدِّم لهم الأعشاب اللازمة للمعدة، كما علَّمني أبي قبل أن يموت، وسوف أربِّي أطفالك وسوف وسوف إذا سمحتَ لي بذلك ... أوه، كم أحبُّ أن أحمل أطفالك فوق يدي وظهري ... أرجوك خذني معك يا تانيا ... أرجوك.

تبادلا الكلمات بسرعة، ولم يستمع تانيا إليها جيدًا، فاعتقدَت تريسا أنه رافضٌ لما تقول، فركعَت تحته وتعلَّقَت بقدمَيه، ثم نظرَت إليه بعينَيها الجميلتَين ذواتَي اللون البني كعيون الماعز، وكرَّرَت بوضوح: أرجوك أن تأخذني معك.

لم تكن عينا تانيا تُوحيان بالمرارة أو الرفض وهو ينظر إليها دون أن يسمع سوى كلماتها الأخيرة، ساعدَها على النهوض، ولف ذراعه حول خصرها الجميل، ثم تحركا نحو البيت بعيدًا عن غروب الشمس. شعَر تانيا بشيءٍ ما في جسده ينمو ويتحرك ببطء، وكان ذراعه حول خصر تريسا يُشعِره بنفس الأحاسيسِ التي يشعُر بها عند قبر أمه تحت الشجرة المقدَّسة.

كان يمشي بسرعةٍ كبيرة، وكان على تريسا أن تسارع بخطواتها كي تلحَق به.

قالت وقد اقتربَت منه: لقد مارستُ الجنسَ مع رجالٍ ثلاثة في منزل ماريا، وصدِّقني يا تانيا أنني كنت مضطرةً لذلك؛ كان أحدهم موظفًا حكوميًّا من أولئك الذين يركبون السيارات الكبيرة، وكانت ماريا تحتاج للنقود، وكنتُ أريد لها أن تحيا. أما الثاني فقد أجبَرني على ذلك وكم كان فظيعًا حتى قرَّرتُ أن أقتل نفسي لو حملتُ طفلًا منه، لكن ذلك لم يحدث. وكان الأخير هو الرجل الذي مات حين هدَّد بقتل نفسه إذا لم أسمح له بذلك، ولم أهتم كثيرًا؛ فلقد سمعتُ أنهم في بعض الأماكن يتبرَّعون بالدم لإنقاذ الناس المُوشِكين على الموت، فهل تعتقد أنني كنتُ مخطئةً يا تانيا؟

كانت خطواتُ تانيا ما تزال مسرعة، ولم يكن مدركًا تمامًا لوجود تريسا وهو يضحك بصوتٍ عالٍ ... شدَّت ذراعه بقوة حتى توقَّف عن السير، وشعَر بقليل من الذنب؛ لأنه كان يضحك بهذه الطريقة في مثل هذه الظروف.

تساءلت تريسا برقة وقلق: لماذا تضحك؟

واصل تانيا ضحكاته ولكن بصوتٍ خفيضٍ هذه المرة، فكرَّرَت تريسا سؤالها.

قال تانيا: هل كان بمقدوره فعلُ ذلك؟

– من؟

– الرجل العجوز، الرجل الميت.

– لا ... ليس بالضبط؛ فأنت تعرفُ طريقتهم، كان يسب ويلعن طوال الوقت، وتحدَّث عن أنه كان رجلًا طيبًا، لكنني تمنَّيتُ حقيقةً لو أنه استطاع فعل ذلك جيدًا من أجله بدلًا من الكذب وإغراق وجهي بدموعه، شعرتُ بالأسف من أجله، ثم شعَرتُ كأنني مريضة فنهضتُ واغتسَلْت.

قال تانيا: يا له من عجوزٍ مسكين! ليتني لا أصبح عجوزًا مثله.

أجابت تريسا: سأكون معك حين تصبح عجوزًا.

ضحك كلاهما فقالت تريسا: دعنا نستريح قليلًا.

جلسا في صمتٍ يتطلَّعان إلى غروب الشمس، ثم وضعَت تريسا يدها فوق فخذ تانيا، وبعد قليلٍ من الوقت سألَته دون أن تحرك عينَيها وهي تنظر إلى الشمس الغاربة: هل أنت غاضبٌ لأنني مارستُ الجنس مع أولئك الرجال؟ كان لا بُد أن أخبرك؛ فلقد علَّمَتني أمي أن أقول الحقيقة دائمًا، حاولَت أمي جاهدةً أن تجعل مني فتاةً طيبةً وشريفةً على أمل أن أقابل رجلًا جميلًا ذات يوم وأتزوَّجه، وأعتقد أنها لم تتوقَّع ما وصلتُ إليه، وذات يومٍ هجرتُ بيت ماريا الذي كان جميلًا جدًّا في أيامها، ولم يكن يُوجَد مثله، فكان الناس في كاشا وانجا يتزايدون ويمارسون الحب والكراهية، وفي هذا الجو أحبَّت الأمهات أطفالهن وقدَّسن أزواجهن، كان الرجال يتصارعون بقوة ويتقاتلون، لكنهم كانوا أيضًا يُحبُّون بعضهم بعضًا بطريقةٍ ما، ثم يموتون كما مات العجوز دون أن يبكي عليهم أحد وهم يُدفَنون في الطريق كالكلاب ... أما اليوم فالنقود هي كل شيء، وكذلك الوضع الاجتماعي، لماذا ينبغي أن يصبح الأطفال موظَّفي حكومة؟ سوف نصبح قريبًا بلد موظَّف الحكومة والنقود والدعاية؛ فهم يقدِّمون في الإذاعة أنصافَ الحقائقِ فقط.

كان تانيا ينظر إليها ويدلكُ رقبتَها وكأنه يخفِّف آلام اعترافها ومخاوفها، ثم فكَّر قائلًا: يا لها من طفلةٍ مسكينة!

يجب أن يحميها من ذلك الصراع والتفتُّت ... لم يستطع بعد اعترافها أن يسمعها بوضوح، أو ربما لم يكن راغبًا في سماع المزيد، فراح يُداعبُها ويتحسَّسُها كي تنسى ... وضع رأسَها فوق صدره، وقال لها: انظري إلى الشمس الغاربة.

ثم أضاف: هل تودِّين معرفة عدد النساء اللاتي مارستُ معهن الحب؟

أجابت: لا.

– ولماذا أخبرتِني أنتِ إذن؟

– لأنني امرأة، وحين تذهب المرأة إلى فِراش رجل؛ فإما أن يكون ذلك بالقوة لسببٍ أو آخر، وفي هذه الحالة فإنها تُمضي وقتًا عصيبًا لنسيان تلك الإهانة، أو أنها تُمارِس الحب مع رجل تحبه، وحينئذٍ يظل ذلك الرجل بداخلها دائمًا، أما معكم أيها الرجال فالأمر يختلف؛ حيث الذهاب إلى الفِراش مع امرأة يُعَدُّ بالنسبة لكم كالمُخاط.

قال تانيا وهو يداعب يدَها فوق أنفه: إنك تعرفين أكثر مما يحتمل عمرك.

قالت: لأنني عانيتُ أكثر مما يحتملُ عمري.

لستُ مهتمًّا بالذين مارستِ معهم الجنس ... إنه لشيءٌ فظيعٌ أن يقطع الطفل إصبعَه ردًّا على مضايقة أمه له، أوه ... ربما لأن المرء لا يجد شيئًا آخر يفعله، أو ربما لأنه قد فقد احترامَ الجنسِ البشري.

– هل كنتَ قاسيًا مع النساء اللاتي بادلتَهن الفِراش؟

– نعم ... أعتقد ذلك ... أعتقد أنني كنتُ قاسيًا في معظم الحالات.

– أتمنَّى ألا تكون قاسيًا معي.

– وأنا أيضًا أتمنَّى ذلك؛ فإنني لستُ مهتمًّا بما حدث معكِ، لكن ما سوف يحدُث هو ما يهمُّني.

– لماذا؟

– لأنك ستصبحين زوجتي، زوجتي الوحيدة؛ إذ إنني أشعر تجاهك ما كنتُ أعتقد في استحالة الشعور به مرةً أخرى، وها أنا ذا أحسُّ بالدم يجري في عروقي مرةً أخرى.

أوه تانيا، حبيبي تانيا، زوجي تانيا، سوف أقوم على خدمتك طَوالَ عمري، وتشهد الشمس الغاربة على ما أقول، سوف أحبُّك وأربِّي أطفالك.

جعلَته يجلس على الأرض، ومرَّت بيدَيها فوق شعره، وقبَّلَت رقبتَه وصدرَه وهي تبكي من الفرح ومن الحياة التي اكتشفَتها من جديد.

لفَّ ذراعه حولها، وقال ببطء: نعم، نعم يا حبيبتي.

ثم نهض فجأةً وفكَّر في كيفية ألا تتعرَّض هذه الفتاةُ المسكينةُ لموتٍ آخر، لا بُد أن ينقذها من الموت، وعليه الآن أن يصحبها لتقيم مع جيمس حتى يتحسَّن والده أو يموت.

كان تانيا فرحًا لهذه العلاقة التي جعلَته يشعُر بأنه وُلد من جديد.

قالت تريسا: ولِمَ لا نذهبُ معًا الآن؟ سأبقى في كوخ جدَّتك كأنني أختك حتى ينتهي كل شيء.

لم يجد سببًا يقوله سوى أنه يريد أن يجهِّز المنزل، وينظِّف لها الكوخ، وربما ينظم حفلةً يدعو فيها الاصدقاء والعائلة.

قالت تريسا: لا ... لا بُد أن هناك سببًا آخر لا تُريد أن تُخبرني به؛ فربما تشعُر بالخجل مني؛ لذلك أريد وقتًا كافيًا لقول بعض الأكاذيب عني أولًا.

ابتعدَت عنه بغضب غير مصدِّقة لما قالت، لكن غضبها جعله يقف: حسنًا، أستطيع أن أخبركِ بكل شيء. إن والدي يموت ببطء، وربما مات فعلًا، إن مَن يفعل أشياءَ سيئةً في حياته يموت ببطء، كما يقولون، إن أبي لم يَعِش حياته جيدًا، وأنا أريدُ لكِ أن تأتي بعد انتهاء كل شيء.

– أوه يا حبيبي، إنها المرة الأولى منذ وفاة أمي التي يرغب فيها شخصٌ ما في حمايتي، لكنني أرفض هذه الحماية؛ إذ ينبغي أن أذهب معك الآن وأقف بجانبك وأشاركك الحزن؛ لأنه أيضًا بمثابة أبي ... أرجوك اسمح لي بذلك؛ لأنني حين قلتُ بأنني سوف أغسل قدمَيك كل يوم لم أكن أعني غسلَهما بالماء فقط.

ارتمَت بين أحضانه مرةً أخرى، لكن تانيا ابتعد عنها، ثم نهض وقال آمرًا وبدون إحساس بالمرارة: لا ... سوف تقيمين عند جيمس حتى تنتهي الجنازة ومراسم العزاء، ثم أرسل في طلبك لنتزوَّج.

انتهى من كلامه، وبدأ يتجه غربًا نحو البيت.

سارت تريسا خلفه وهي تُدندِن بأغنيةٍ قديمة عن رجل كان سعيدًا، وحتى لا يُفسِد أحدٌ سعادته كان يصعد إلى الشجرة ويجلس فوق أحد فروعها طوال اليوم إلى أن تتبدَّد سعادته، فينزل مرةً أخرى ليجمع ما يكفيه من السعادة، فيعاود الصعود إلى الشجرة. ظلَّت تريسا تُغَني برقةٍ عن العناية بشجرتها الصغيرة الجميلة، ورشِّها بالماء كل يوم حتى تكبر، وعندئذٍ يمكن أن تُسمِّيها شجرة السعادة، وتستطيع أن تتسلَّقها كلما كانت سعيدة.

ضحك تانيا وفكَّر: إنها ستصبح امرأةً عجوزًا قبل أن تكبر.

قالت له: ماذا يحدُث للرجل لو أن شخصًا ما قطع الشجرة؟

ضحك كلاهما ثم أجاب تانيا: لا أعرف، لكنه ربما يجلس ويصرُخ حتى تتبدَّد سعادته.

شدَّ كلاهما الآخر من خصره، وواصَلَا الضحك.

ساد الظلام، لكنه كان من اليسير رؤيةُ المَمَر الضيق المتعرِّج المؤدي للهدف، الذي لم يكن لديهما ما يكفي من الصبر للوصول إليه ... كانت يمامةُ الليل تُغَني والجنادبُ تحوم حول المكان وهي تجلب الضجيج وسط العُشب الجاف، وكان ولدان من الرعاة يودِّعان بعضهما عَبْر الأودية وصوتُ بقرة كانت تخور.

كانت كاشا وانجا هادئةً وجميلةً في تلك الليلة، وراحت تريسا تُغَني مع الطيور والجنادب متقدمةً بالشكر للإله، فطرب تانيا من صوتها، وتمنَّى أن تُواصِل غناءها وحديثها دون الاهتمام بما تقوله؛ فقد كان مهتمًّا بصوتها فقط، الذي جعله يكتشفُ مملكة الإحساس بداخله، والذي ارتوى به قلبُه الجاف.

ظل يتتبَّع صوتها وكأن الآلهة كانوا يشيرون إليه قائلين: سافِر ... سافِر إلى جحيم كاشا وانجا عَبْر الوديان!

ها أنا ذا أسألك أيها القارئ: هل يُعَد ذلك غريبًا وهل ثمَّة اختلاف بين حب الرجل لامرأة وحبه للإله؟ ... إن كلَيهما نتيجة للضعف وعظمة الإنسان ... أليس كذلك؟

قال تانيا: من المحتمل أن الطيور تُغَني بعضُها لبعض، أو من أجل أن تنامَ طيورُها الصغيرة، وربما لتمجيد مَن يُحبون وليس شكرًا للإله.

كان خائفًا أن تتوقف تريسا عن الكلام لكنها قالت: خبَّرَتني أمي ذات يومٍ أن كل شيء في الحياة، حقيقيًّا كان أم طيبًا، إنما هو شُكرٌ للإله، ولستُ أدري حتى الآن معنى كلامها.

كان الظلام قد اكتمل تمامًا حين وصلا إلى بيت جيمس، وكان تانيا سعيدًا للغاية، وفكَّر أن يجعل جيمس ينسى ما حدَث في الليلة الماضية ... فتح البابَ بهدوء، وكانت تريسا تنتظر بالخارج في الظلام، فظهَر جيمس جالسًا برأسه فوق المائدة وضوءُ الفانوسِ المنخفضُ يرسم ظلالًا كغروب الشمس.

كان جيمس يبكي، فقال تانيا لنفسه: أوه ... يا إلهي، وأنت أيضًا تبكي!

ثم اقتربَ من جيمس وتناوَل منديلَه الأبيض قائلًا: بول، جيمس، بول، صديقي.

لم يكن تانيا يعرفُ السبب في بكاء جيمس فراح يجفِّف دموعَه بالمنديل، ويتساءل: أي نوعٍ من الحزن ذلك الذي ينتابُه؟ هل ماتت أمُّه أم أنه فقد وظيفته؟ هل يشعُر بالضياع والوحدة بين ملفات الحكومة؟ أم أنه اكتشف أنه حلقةٌ مغلقة في سلسلةٍ غيرِ مرئيةٍ تربط كاشا وانجا بملفاته؟ هل لأنه يقوم بتنفيذ ما لا يُوافِق عليه؟ هل لأنه اكتشَف عجزه؟

هكذا تساءل تانيا وهو يضَع ذراعه فوق كتف جيمس، جلس إلى جواره ولم يقُل شيئًا.

خافت تريسا من الظلام، ففتحَت الباب ببطء، ووقفَت تنظر إلى الرجلَين اللذَين لم يشعُرا بها.

قال جيمس وهو يبكي كالأطفال: بارانيا، ماذا سأفعل؟

كان رأسه مستندًا إلى المائدة، وكان يبكي، فلم يستطع تانيا أن يسمعه بوضوح، فكرَّر جيمس: ماذا بوسعي أن أفعل بعد أن فقدتُ وظيفتي، قالوا إن الإنتاج لا يتزايد في قريتي، وإن الناس لا يزرعون ما يكفي من الذرة والقطن، وقالوا أيضًا إن سياستي …

بدأ في البكاء مرةً أخرى.

كان فضولُ تريسا قد غلبَها ولم تعُد قادرة على عدم التدخُّل، فتقدَّمَت ووضعَت يدَيها الجميلتَين القذرتَين فوق كتف جيمس الذي اعتقد أنه تانيا، وحين شعَر بنعومة اليدَين والصدرِ الحادِّ المُلامِس لظهره نظر إليها، فقال تانيا: إنها صديقَتي.

جفَّف جيمس دموعَه، ورسم على وجهه ملامحَ الموظَّف الحكومي التي لم يعُد له الحق فيها، وقال: إنه لشيءٌ جميل أن تزوراني، فهل أقدِّم لكما بعض الويسكي؟ كدتُ أقتُل نفسي بالأمس حين أخبرني رئيسي، هل تشاهدان تلك العصا الحادة كالدبوس، لقد قمتُ بتثبيتها في الأرض، ثم أغلقتُ عيني وفكَّرتُ أن أجري وأسقط عليها … حاولتُ ذلك ثلاث مرات، لكنَّ شيئًا لم يحدث.

صفَّق بيدَيه في يأس مستطردًا: كنتُ خائفًا فلم أستطع … لقد تحوَّلتُ بالتعليم والوظيفة إلى امرأة، حتى إنني لم أستطع مساعدةَ عائلةِ الرجلِ التي تتضوَّر جوعًا؛ لأن رئيسي أمرني ألا أفعل، وقال: أفضلُ له أن يموتَ بدلًا من الخجل الذي ينتابُه وهو يرى أولاده يموتون من الجوع.

قال لي الرجل إنه سينتحر ولم أصدقه، لكنني في اليوم التالي وجدته معلقًا في الشجرة. أما أنا فلم أستطع أن أفعل ذلك يا بارانيا … لم أستطع! ثم تناولتُ كل نقودي وتوجَّهتُ إلى الدكان الهندي في جنوب كاشا وانجا، واشتريتُ زجاجة الويسكي؛ فلقد شعَرتُ برغبةٍ شديدةٍ لأن أصبح مخمورًا، وحين عُدتُ ظلِلتُ جالسًا في هذه الحجرة دون أن أقدر على لمس الزجاجة، ولستُ أدري السبب غير أنني لم أستطع أن أشربها، وقدَّمتُ بعضًا منها إلى أمي دون أن أخبرها أنهم فصلوني من العمل، لكنها رفضَت متعللةً بأنها لا تشرب شيئًا أوروبيًّا، وأنها لن تفعل، وإذن دعوني أقدِّم لكما هذا الويسكي؛ إذ ربما أستطيع معكما أن أشرب قليلًا منه … أرجوكما.

أشارا برأسَيْهما بالموافقة.

لم تكن تريسا قد شَربَت الويسكي من قبلُ ففزعَت، ثم أضافت إليه ماءً وتناولَته، فشعَرَت بمذاق عُصارة الموز الذي شربَتْه ذاتَ مرةٍ في موسم الجفاف والجوع.

جلس جيمس فوق مقعدٍ خشبيٍّ قديم وكأسُه بين يدَيه، وكان ينظر إلى تانيا وتريسا وكأنه يرجوهما مرةً أخرى أن يشربا.

قال تانيا: هيا اشرب يا عزيزي.

تناول جيمس كأسه في جرعةٍ واحدة، ثم بصق المرارة التي علقَت بفمه فوق الأرض الأسمنتية، وراح يصُب لنفسه كأسًا أخرى وهو يقول لتريسا بكرم: إليك بالمزيد. ثم قال لتانيا: ما اسمها يا بارانيا؟

قالت هي: تريسا.

ثم هزَّت رأسها مشيرةً إلى الزجاجة، وقالت: ستتناول المزيد يا بارانيا ... أليس كذلك؟

قدَّم بارانيا كأسَه في صمت، وتناول جيمس كأسًا أخرى، ثم تلاها بأخرى، وكان كلٌّ من تانيا وتريسا ينظران إليه بارتياب ... كانت تريسا ترمقُه بنظراتها من ركن عينَيها، وتقوم بترتيب الملفات والأوراق المبعثرة فوق المكتب، بينما يُقلِّبُ تانيا الويسكي في فمه قبل ابتلاعه وهو يراقب جيمس وكأنه طفلٌ يلعب بالموسَى.

لعب الويسكي برأس جيمس الذي قال: قد تعتقد يا بارانيا أن ذلك غباء، لكن الحياة خادعة وملعونة، نعم هي كذلك.

كان منفعلًا، فقام بتكسير الكأس بما فيها إلى قطعٍ صغيرةٍ فوق الأرض، واستطرد: لقد ذهبتُ للمدرسة، ودرَستُ بجدٍّ على أمل أن أساعد الناس في يومٍ ما، كان لا بُد من مساعدتهم حتى أكون أمينًا مع نفسي؛ ولذلك أصبحتُ مسيحيًّا لأنهم علَّمونا في المدرسة أنه من اليسير أن تكونَ أمينًا وشريفًا عندما تكونُ لك ديانة، اعتقدتُ وصدَّقتُ فيما علَّمونا إياه، وظلِلتُ أعمل ليلًا ونهارًا في الملفات والتقارير، وتحدَّثتُ مع أهل قريتنا عن كيفية عمل هذا وذاك، وكانت الأمور تسير على ما يُرام، حتى غيَّرَت الحكومة من سياستها، فاعترض الناس، لكنني تخيَّلتُ أن ذلك مجرد ضغطٍ مؤقت، لا ... لم يكن مؤقتًا، فتوالت الأحداثُ تلو الأخرى حتى فصَلوني، وإنني لأتساءل الآن كيف وأين بدأ كل شيء.

تناوَل الزجاجةَ نفسَها وراح يشربُ منها، ثم أضاف: لقد صلَّيتُ كثيرًا، وعملتُ بجدية أكثر، وكنتُ أثق في الحكومة وحكمتها، فوقَفتُ إلى جانبها، لكنني في الحقيقة كنتُ أقدِّم التنازلات، حتى جاء اليوم الذي علَّق فيه ذلك الرجلُ نفسَه في الشجرة، ومن هنا بدأَت تجتاحُني الكوابيس، ولم أعُد قادرًا على النوم؛ فقد كان يرمقني بنظراتِه وأنا نائم، وأذكُر أنه قال لي في أحد الكوابيس إنني والحكومة لن ننساه أبدًا، ثم سألَني عن الفائز والرابح ... هل هو أم أنا! ... ركَعتُ وصلَّيتُ كي يسامحني ويغفر لي، لكن الكابوس كان قد انتهى، فأضأتُ المصباح وتساءلتُ عن الرابح الذي من المحتمل أنه ليس أنا، لكن الحكومة لا تعاني

من الكوابيس، فقرَّرتُ أن أكونَ ما كان يجبُ أن أكونَه منذ البداية، رجلًا أولًا، ثم موظَّفَ حكومةٍ ثانيًا، فسارعتُ بالكتابة إلى رؤسائي، وأخبرتُهم أنهم مُخطِئون.

تناول جرعةً كبيرةً من الزجاجة التي فرغَت إلى نصفها، ثم ضحك قائلًا: أنا الآن رجلٌ ولستُ أيَّ شيءٍ آخر، ولأنني كذلك يجب أن أقتُل نفسي، لكن رجولتي ليست كافيةً لقتل نفسي، وهذا ما أعنيه بأن الحياةَ خادعةٌ وملعونة.

حاوَل أن يشرب مرةً أخرى، لكن تانيا أزاح الزجاجة عنه، فقال جيمس: دعها يا بارانيا.

قالت تريسا: إنني مجرَّد فتاةٍ صغيرة و...

قاطعَها جيمس وهو يضحك في لحظةِ خلاصٍ وقتية: ها ها ... أنتِ فتاةٌ صغيرة؟! تجاهلَت تريسا مقاطعتَه، وقالت: إنني لستُ سوى فتاةٍ صغيرة، لكنني عانيتُ كثيرًا؛ ولهذا أعرف بعض الأشياء القليلة؛ فأنا أيضًا حاولتُ أن أقتُل نفسي ذاتَ مرةٍ حين أساء لي أحد الرجال، فجأةً قرَّرتُ ألا أفعل ليس خوفًا مني، ولكن لأنني تذكَّرتُ ما قالَته أمي بأن الحياة بكل مساوئها أفضلُ دائمًا من الموت، من الحماقة أن يُصابَ المرء باليأس ويقتُل نفسه إذا ما أبصَر جفاف الأعصاب، لقد كنتُ أرتعشُ حتى الأمس من حياتي ومن الفراغ الذي يملؤني، وحين نظرتُ إلى غروب الشمس شعرتُ بحياتي تغرُب معها، مثل دجاجةٍ تموت قبل أن تفقس. أما اليوم فإن المطر يتساقط في قلبي.

وضع تانيا ذراعَيه حولها قائلًا: ولن يتوقَّف المطر أبدًا.

لم تتجاهل المقاطعة هذه المرة، ووضعَت ذراعها حوله، واستطردَت بجدية دون أن تزيح نظراتها عن جيمس: لو أنني حمقاءُ لما كنتُ هنا اليوم، ولما سمعتُ الطيور وهي تسبِّح للإله، إن الرجل الذي يقتُل نفسه قد يكون رابحًا ولكن مَن يكون الخاسر في مثل حالتك؟ لا ... إن ثمَّة انتصارًا ينشأ من الهزيمة.

كان الرجلان يحدِّقان فيها بصمت وهي تتكلم، وشعَر تانيا وهو يسمع صوتَها أنه يمشي معها مرةً ثانيةً في الممر المؤدي للغرب. أما جيمس فقد أيقظَه كلامُها، وأصابَتْه الدهشة من خبرتها وحكمتها الواضحة.

كانت تريسا بارعةً في ممارسة دور الأم والإله بالنسبة لكثيرٍ من الناس، منذ أن كانت طفلةً صغيرة، وكانت تقول كلامًا يُفيد الناس، ودائمًا ما كانت تحاول — دون يأس — أن تُشرِق الشمس في قلبها مرةً أخرى ... كانت تُتابِع الضوء والدفء المتولِّد منه وتُعاني من رعشة التوقُّع.

شعَرَت تريسا بالانتصار، ولم يحرِّك جيمس عينَيه عنها حين قال: إنكما في حالة حب.

– نعم، وسنتزوج قريبًا.

– أنت رجلٌ محظوظٌ يا بارانيا؛ فمن الصعب على رجلٍ أن يتزوج امرأةً طيبةً وحكيمة.

ابتسمَت، تريسا، وقال تانيا: نعم. كما قلت؛ إذ لا يجب على المرء أبدًا أن يغلق باب الأمل، وعليه ألا يتوقف عن التطلع إلى السعادة والحب؛ فقد يكون فقدُك لوظيفتكَ هو ما يجعلُكَ تملكُ الوقتَ للبحث عن نفسك، مثلما يُحدِّق الأسد في نفسه عندما تهرُب منه الفريسة.

تقدمت تريسا نحو تانيا، وقالت وهي تدلكُ كتفَه برقَّة: سوف نتزوج، ولن نصبح أغنياء، لكننا لن نجوع، سوف نصبح عائلةً تُرسِل أطفالها إلى المدرسة ... سأكون فتاةً طيبةً من كاشا وانجا تتمتَّع بالصحة، لن أكون كالفتياتِ اللاتي يمسحن الأحذية البيضاء من التراب، وإنما سأعمل بالفأس من شروق الشمس إلى غروبها، وأربِّي أطفالك، وأسهَر على سعادتك.

تحسَّسَت خدَّه برقَّة وكانت تَعني ما تقول عن كيفية أن يكون الرجل سعيدًا، أبصرَت زجاجةَ زيتٍ صغيرةً تحت سرير جيمس في الحجرة الأخرى، فأفرغَتها في خزَّان المصباح.

قال جيمس بعد تأمُّلٍ طويل: أنتِ على حقٍّ يا تريسا؛ لأن ما أحتاجُه فعلًا هو امرأةٌ تعزِّيني وتكونُ سندًا لي.

كانت تريسا مشغولةً بالمصباح فلم تسمع ما قاله، ولم تكُن تريدُ أن تسمع بعد أن عرفَت تأثير كلماتها.

ا قال تانيا: أريد أن تبقى تريسا هنا يا جيمس، أريد أن تبقى معك حتى أدبِّر أموري في البيت.

– وهل تثق بي إلى هذه الدرجة؟

– لا، وإنما أثق بها هي.

وقالت تريسا: يجب أن تثق به أكثر؛ لأنك تعرفُه منذ زمنٍ بعيد.

– طبعًا أثق به، لكنني كنتُ أضحك فقط.

– طبعًا بارانيا، ويُوجَد سريرٌ خشبي أخشى ألا يكون مريحًا، ولكن ألا تعتقد أن الناس سيتكلمون؟

قالت تريسا: سأبقى في كوخ أمك يا تانيا، وأقوم بمساعدتها في الحصول على الماء، وفي الطهي والأعمال اليومية الأخرى.

– لا ... لا ... إن بقاءكِ معها سيجعلُها تتذكَّر عدمَ إنجابِها لطفلةٍ أخرى. لم تكن تريسا تقبلُ الهزيمة أبدًا، فقالت: أنت مخطئٌ يا بارانيا ... هل يحقُّ لي أن أدعُوَكَ بارانيا أيضًا؟

– إن النساء لا يستخدمن ألقاب الرجال، لكنني لا أمانع.

– شكرًا، وأكرِّر بأنك مخطئ؛ لأنني سأجعلها تفكِّر في زوجةٍ لابنها.

قال جيمس: حسنًا، سوف أصحبكما إليها، وأشرح لها كل شيء؛ فهي امرأةٌ متفهمةٌ جدًّا.

قال تانيا: وإلى الغد سأتركُكما تُدبِّران أموركما؛ فينبغي أن أذهبَ للبيت لئلا يُساورَهم مزيدٌ من القلق، وأعتقد أنني لستُ في حاجة لتلك العصا الحادَّة كالدبُّوس وتلك الزجاجة ... أليس كذلك؟

– قد أكون أحمق، لكنني لستُ معتوهًا أو مجنونًا، كما أن لي أصدقائي، وكل ما في الأمر أنني كنتُ أحسُّ بتعبٍ شديد ... إنكَ لم تأتِ لرؤيتي ... أنت غشَّاش.

قال تانيا وهو يهزُّ ذراعَيه، ويختفي في الظلام، ويصفِّر بفمه: حتى الغد تُصبِحون على خير.

كان قد نَسِي تمامًا أباه وكل ما حدَث له ذلك المساء.

٨

عندما عاد تانيا للبيت كان أبوه في حالةٍ سيئة، فقالت أمه توبِّخه: إن أباك يُوشِك على الموت وأنت بالخارج طَوال هذا الوقت، في أيامي ...

قاطعَها تانيا قائلًا: لقد ذهبتُ إلى المقبرة.

– إن السحلية تترك موتاها دائمًا، وتذهبُ للعَزاء في موتى الآخرين.

قال تانيا وقد فقَد رشده: وهل كان بوسعي عملُ شيءٍ لو بقيتُ هنا؟ ... أخبريني ... هل كان باستطاعتي إنقاذه؟

قالت أونيا: أتوسَّل إليكما؛ فالموقف الآن لا يحتمل أن تتعاركا، وأنتِ يا جدَّتي تشعرين بالتعب، فهيا اذهبي لتنامي.

قالت الجدة وهي تتحسَّس طريقَها خارج الكوخ: نعم يا ابنتي؛ فإنه من الصعب على مَن هم في مثل عمري ...

تبعَتها أونيا، وقد لاحظ تانيا شعورَها الباردَ نحوه هذه الليلة؛ فهي لم تتحسَّس كتفَه عندما أحضرَت له الطعام، كما أنها خرجَت دون أن تُبادِلَه تحية المساء.

رقد تانيا إلى جوار أبيه فوق السرير دون أن يلمسه، لكنه لم يستطع أن ينام؛ لأنه كان وحيدًا في الكوخ مع أبيه المريض، وراح يفكِّر في أحداث الليلة الماضية حتى أصبح مشدودًا كحبل الغسيل وهو يتذكَّر حُبه لتلك المرأة.

انطفأ موقد الكيروسين ولم يشأ أن يُشعِلَه رغم اقتراب زجاجة الكيروسين منه، وظل يحدِّق في الفتيلة ويفكِّر: إن الرجل الذي يستيقظ متثائبًا في الصباح، ويريد أن ينام مرةً أخرى، هو في الحقيقة نفس الرجل الذي يَعرَق في الحقل أثناء الظهيرة، أو نفس الرجل الذي يمارس الحب بالليل، ثمَّة حلقةٌ تربط الأيام ببعضها، فهل من الممكن أن تكون هناك حلقةٌ بين تلك المرأة التي سأتزوَّجها وبين أبي الذي يموت، والذي قد لا يكون أبي على

الإطلاق؟ ... وهل انجذابي نحو تلك المرأة ليس إلا مجرَّد نشوةٍ أو ذهول، وهل هو ردُّ فعلٍ طبيعي لكل معاناتي في هذا العالم الذي رفَض مصافحَتي؟

رأى تريسا في حلمه وهي تسير معه نحو الغرب، ولم يكن هو سوى ولدٍ صغير بينما هي فتاةٌ كبيرة، وكانت أصواتُ الحيوانات الكثيرة تتخلَّل ظلام حُلمه، خيل إليه أنه يسمع صوتَ أحد أصدقائه الذي يريد أن يُبلغَه رسالة، فحاوَل أن يتراجع، لكن تريسا قالت له: إذا رجعتَ فسوف يأكلك النمرُ أو أحدُ الحيوانات المفترسة، علينا أن نسارع في اتجاه المنزل قبل أن نتأخَّر.

اعترضَ تانيا: لكن بيتي ليس في هذا الاتجاه.

تبعَته تريسا وأمسكَت يده وهي تسير معه في اتجاه الغرب لفترةٍ قصيرةٍ فقط، لكنه عندما نظر إليها عرف أنها ليست تريسا، وإنما امرأةٌ غريبةٌ سرعان ما اختفت في الهواء، كما اختفى الجنُّ الشرير في إحدى الحكايات التي روَتْها له جدَّته ذات يوم، فوقف في مكانه مشتَّتًا حتى لم يعُد يسمعُ صوتَ صديقِه الغريب، وعند هذا الحد تراجَع حُلمُه، وراح في نومٍ عميق.

استيقَظ تانيا قبل الفجر، ولم يُسعِفْه الوقت لتفسير حُلمه؛ فقد كانت يدُ أبيه تستقر فوق صدره، حاول أن يبدو هادئًا أمام موت أبيه فلم يتألم، لكنه أمسَك يدَ أبيه بهدوء، ووضعَها فوق جسده، حتى يبدو كصور المومياوات المصرية القديمة.

وقف تانيا خلف الكوخ في مواجهة الغرب يحدِّق في كرة الشمس الحمراء، وما هي إلا لحظاتٌ حتى أشرقَت الشمس ببطء، فانحنَى تانيا على الكوخ، كمن يُخاطب أحد الأصدقاء.

كان يفكِّر في كيفية دفن أبيه وقد تحرَّر من أرَق الانتظار وشعَر بالحرية.

٩

إن الموت في كاشا وانجا كالهجرة إلى قريةٍ أخرى، ولكن بدون عودة، أو كأنه حفلُ وداعٍ أخير إلى قريةٍ أخرى تُعَد مصيرًا نهائيًّا لكل شخص.

كان تانيا يفكِّر في مراسم الجنازة، وكيفية دعوة كبار القرية للعَزاء، وعن الوقت الذي يذبح فيه البقرة وهو لا يزال يحدِّق في شروق الشمس، وقد شعَر بأن خطأً ما في شروق الشمس، التي كانت ترتعش في الصين على غير العادة، وكأنها شخصٌ فقَد رشده.

دخلَت جدَّته الكوخ، وأبصرَت ابنها ميتًا، فعادت مسرعةً وهي تشُق سُترتَها وتُبلغُ رسالتَها بالصُّراخ عَبْر الوادي، ثم ظلت ترقص حول المكان وتستجدي دموعها المخزونة ... كان بطنها يتحرك إلى أعلى وأسفل وكأنها حاملٌ تُوشِك على الولادة، ركعَت في اتجاه الغرب وقالت بهدوء: خذه ... خذه فأنت لم تسمح له أبدًا بالراحة ... خذه فأنتَ شخصٌ جائع ... لقد سرقتَ لبني لأنني امرأةٌ عجوزٌ وضعيفة.

شدَّت صدرها بيدها، وصبَّت فيه الرمال باليد الأخرى، ثم استطردَت: خذه فأنت لم تعرف أبدًا مدى ألمي وأنا أقشِّر الموز النيِّئ للطفل؛ لأن أثدائي كانت جافة.

كان تانيا واقفًا إلى جوارها، فركَع بجانبها وراح يُساعِدها في تلطيخ جسدها المرتجف بالرمال، فأصبحَت تشُد أثداءَها بيدَيها الاثنتَين.

ذهبَت أونيا مع الصغار إلى بيت ميريشو، وكانت تمسحُ دموعَها بظهر يدها وتردِّد قليلًا: مام ... مام!

سألها الأخ الأصغر: إلى أين نحن ذاهبون؟

فأجابت أونيا: سوف تبقى في بيت ميريشو بعض الوقت؛ لأن جدنا ذهب في رحلة، وسيزورُنا كثيرٌ من الناس.

– وهل ذلك هو السبب في بكائك؟

– نعم، خاصةً وأننا لا نملك طعامًا لهم.
– يمكننا ذبح البقرة «كيبيا» لهم.
– أعتقد أننا مضطَرُّون لذلك.

انطلق بكاءُ الأم وعويلُها عَبْر الوادي، حتى لم يعُد من اليسير سماع غناء الطيور، رغم أن ابنها لم يكن محترمًا أو محبوبًا بما يكفي في كاشا وانجا، ولكن كان له أولاد وبناتٌ مما جعل الناس تشارك الأم بكاءها كي لا يموت أولادُهم، فانتشر البكاء من منزلٍ إلى آخر منذ الصباح الباكر كلٌّ يبكي على حاله ... كانت بعضُ النساء يُرضِعن أطفالهن وبعضهن يُلقين البطاطين الممزَّقة فوق أكتافهن كي لا تتعرَّض أثداؤهن للعُري، وكن يرقُصن جيئة وذهابًا بإيقاعاتٍ غيرِ منتظمة وهن يتقدَّمن خطواتٍ قليلةً للأمام ثم خطوةً واحدةً للخلف، وبين ذلك الحشد من النساء كانت تريسا تمسح عينَيها من النوم غيرَ قادرةٍ على مشاركتهن الرقص.

فَزِع الأطفالُ من نومهم، وراحوا يحدِّقون في الرجال والنساء بأفواهٍ مفتوحة، كما يحدُث كثيرًا في كاشا وانجا؛ حيث لا يُخبِرون الأطفالَ بما يحدُث، ولا يسمحونَ لهم بمغادرة بيوتهم. كان الأصدقاء في المقدِّمة يتبعون النساء، وكانت دموعهم مترسبة فوق رموشهم وشواربهم، وكانوا يبصُقون مرارةَ نشوقِ الليل القديم.

كانت تريسا تندفع بين النساء اللاتي يتحرَّكن ببطء كي تصل إلى حبيبها، وكذلك حاول جيمس أن يشُق طريقَه وسطَ حشدِ الرجال، حتى أصبح كلاهما قريبًا من الآخر، حين بدأ الرجال والنساء يُغَنون أغنيةَ الموت التي يعرفها جميعُ أهلِ كاشا وانجا.

الرجال: سمعتُ أن بيتَ أخي يحترق.
النساء: إيه ... إيه.
الرجال: ماذا نفعل حين يحترق بيتُ أخٍ لنا؟
النساء: نسارع بالمساعدة.
الرجال: ولكن الماء لا يُوجَد لإطفاء الحريق.
النساء: إيه ... إيه.
الرجال: ماذا نفعل عندما يحترق بيتُ الأخِ ونحن لا نملك الماء؟
الرجال والنساء: نبكي معه، ونُطفِئ الحريقَ بدموعنا.

ظلوا يردِّدون أغنية الموت هذه كثيرًا دون أن يتوقَّفوا عن البكاء، بينما تريسا تجاهد في طريقها دون الالتزام بإيقاع أو خطوات الناس، على العكس من جيمس الذي كان يتحرك

معهم بإيقاع وهو يردِّد كلمات الأغنية التي يعرفها منذ وقتٍ طويل، ولكنه لم يفكِّر فيها من قبلُ.

كان تانيا يضع جدَّته فوق حجْرِه عندما وصلوا إلى المقبرة، فاندفعَت تريسا وركعَت أمامه بينما كانت أونيا تُزيل التراب من أنف العجوز المرتعشة ومن فوق حواجبها، وبعد العودة إلى الكوخ أصبح عددٌ كبيرٌ من شباب كاشا وانجا يحيطون المكان وقد انسحب الصغار إلى الخلف، وواصلَت الأم بكاءها. وكانت بعض النساء يُطلِقن الصرخاتِ من وقتٍ لآخر تأثرًا بالموقف، أو تذكُّرًا لوفاة رجلٍ ما، وربما كنَّ يفكِّرن في أولادهن وكِبَر أعمارهن. كان غالبية الرجال واقفين يعَضُّون شفاههم أو يُعلِّقون رءوسهم، وقليلٌ من الأقرباء والأصدقاء كانوا يسكُبون دموعَهم فوق الأرض العَطْشى.

أشرقَت الشمس من ارتفاعٍ كبيرٍ في السماء حتى أصبح ظل الإنسان في اتجاه الغرب يعادل طولَه تمامًا، وكان الصبية والغرباء قد أصابهم الملل، فتبعثر بعضهم، وجلس آخرون في الشمس انتظارًا لبداية الطقوس التي يقوم بها ميلا، كبير القرية، ذو العظام القليلة الواضحة في جسده.

مشى ميلا للأمام قليلًا في اتجاه الأم، وبعد أن تنحنَح راح يردِّد ما قاله أكثر من مليون مرة في مثل هذه المناسبات: «الأمهات العجائز ... لقد بكت كلُّ واحدةٍ منكنَّ بما يكفي، وإذن فلتَتركْن الباقيَ لنا؛ لأن شجرة البامبو العجوز ليست بها عصارةُ نباتٍ كافية، كما أن البكاء يُزعِج الموتى الذين ذهبوا دون أن يخبرونا ... يجب أن نذرفَ الدموع بعينٍ واحدة وننظُر إلى بركاتنا بالعين الأخرى ... إنه لم يمُت ولكنه عَبَر الوادي إلى الجانب الآخر بحثًا عن دفء الشمس ... إنه ينظر إلينا كلما غربَت الشمس، وهم هناك يملكون الفرصة للبدء من جديد، وسوف نندهش جميعًا عندما نذهب إلى هناك؛ إذ ربما نجده رئيسًا فيما وراء الليل والنهار، فلا تبكي أيتها الأم الطيبة، وكفَى أيها الأولاد؛ لأننا جميعًا سنموت.»

أصبح الجو حارًّا، فأمسك ميلا بذراع المرأة العجوز، وقادها إلى الظل، وكانت البناتُ والقريباتُ قد شعَرن بالكآبة والإرهاق، ورحن يتبعن أونيا وهي تحمل قرعةً من الماء، ثم اختفى الناسُ واحدًا بعد الآخر، وظل الشباب في الخلف انتظارًا لما سيقومون به من عمل.

عرف تانيا مسئوليته الجديدة، والتي يجب أن يكون كفُؤًا لها بصفته كبيرَ العائلة، وبعد أن ذهب الناس توجَّه مع موجيا وجيمس وميلا إلى مكانٍ محدَّد خلف الكوخ، ثم راح ينظر إلى الشمس ويفكر في أحداث اليوم ... تبادلوا الحوارَ حولَ ما يجبُ عملُه، ثم أخبروا الشباب المُنتظِر بما سيفعلون.

١٠

تَعبَت النساء من كثرة البكاء، ولم تكن تريسا موجودةً بينهن، فاعتقد تانيا أنها ذهبَت لتُخفِّف عن نفسها.

شعَرَت الأم به عندما عبَر أمامها فسألَته: هل كل شيءٍ كما ينبغي؟

أجابها تانيا: كل شيءٍ كما ينبغي يا أم الناس.

ثم عاد إلى ميلا والآخرين بينما كانت تريسا في طريقها إلى منزل ماريا، بعد أن تذكَّرَت أنها لم تأخُذ نصيبَها من النقود التي حصلَت عليها من ذلك الرجل الذي أساء إليها، وكانت تفكِّر بأنهم يدفنون القادرين في صناديقَ خشبية، وأن ماريا سوف تعطيها النقود، وعندئذٍ تستطيع شراء بعض الأخشاب وتقدِّمها إلى جيمس بدون أن يعرف تانيا.

تردَّدَت تريسا بشأن عمل صندوق الميت من تلك النقود الملوَّثة، لكنها قالت لنفسها: إن هذا الموت أيضًا ملوَّثٌ ومريرٌ بما يكفي، وليس ثمَّة خطأٌ في امتزاج التلوُّث بالتلوُّث.

طرقَت الباب عدة مرات حتى تأكَّدَت من عدم وجود ماريا، فعادت وهي تشعُر بالاضطراب وخيبة الأمل، وفي طريق عودتها كانت سيارةٌ ما تعبُر الطريقَ القَذر فامتلأَت بالتراب، ثم عَرفَت أنه نفس الرجل الذي أساء إليها في بيت ماريا ودفع كثيرًا من النقود ... شعَرَت بالرغبة في القيء لكن معدتها كانت فارغة.

– لم أدفع لكِ ما يكفي في المرة السابقة.

– هيه.

– أنتِ جميلةٌ جدًّا، ولكن يجب أن تعتني بنظافتك، وتبتعدي عن أولئك المتسوِّلين الحفاة.

– نعم، لكنه حظي ونصيبي.

– ربما أشتري لك فستانًا جميلًا وصابونًا معطرًا في المرة القادمة، كالنساء الأوروبيات، وعندئذٍ سوف أحتفظ بك لنفسي، ولن أتردَّد في إطلاق النار على مَن يُحاوِل أن يلمسك.

– هيه.

– سأعود الليلة، وها هي بعض النقود لتشتري الصابون وتغتسلي جيدًا.

– هه؟

ألقى بعشرين شلنًا بين أثدائها، ومضى في طريقه، فشعَرَت تريسا بالتعب، وكادت تسقُط من الإغماء، ثم جلست هي ملطَّخةً بالتراب تبكي وتضرب الأرض الساخنة مرةً تلو الأخرى، وبدت كالوحش وهي تلعَن ذلك المخلوقَ المغرورَ السافل، وتبصُق على سيارته وعلى كل شيء.

كانت الشمسُ تبدو مثل كرةٍ من النار يصعُب النظرُ إليها، ولم تكن في السماء نقطةُ سحابٍ واحدة ... نهضَت تريسا ببطء كالثعبان المريض، فسقطَت النقودُ الزرقاءُ على الأرض، وشعَرَت أنها عجوز، وتمنَّت لو تنظُر إلى وجهها في المرآة، ثم سارت بضعَ خطوات، لكنها توقَّفَت، وعادت تلتقط النقود.

توجَّهَت ناحية الغرب، وتطلَّعَت إلى الأفق؛ حيث زرقة السماء اللازوَردية تعانق لونَ التلال الأزرقَ الضبابي، ثم ألقت برأسها وذراعَيها في اتجاه الشمس، وقالت: ماذا فعلتُ لكل هذا؟ هل قتلتُ ابنَك؟

كانت ورشة النجارة عند النهاية الشمالية للقرية؛ حيث التلال تحيط كاشا وانجا، وكانت قطع الخشب مختلفة الأشكال التي أحضروا بعضها من قرًى أخرى ... كانت بعضُ الأخشاب مستخدمةً يُغطِّيها الطين، والبعضُ الآخرُ متآكلٌ يتخلَّله النمل الأبيض، اقتربَت تريسا وكان النجَّار جالسًا فوق مقعدٍ ذي مسندَين يتناوَل غذاءه من طاسةٍ خشبيةٍ كبيرةٍ مع مساعديه.

كان النجَّار في منتصف العمر يتدلَّى شعره فوق وجهه غير الحليق، وكانت له شفَتان كبيرتان كالخنزير، ويرتدي قميصًا بدون أزرار يُبيِّن عضلاتِ صدره القوية.

– السلام عليكم.

– السلام عليك أيتها الخطيبة، ويمكنني القول إن العروس التي تبحثُ عن صندوق الزفاف ليست سيئة الحظ.

ضحك المساعدون، وكانت هذه هي الجملة الثانية التي يقولها النجار دائمًا لعملائه من النساء، لكن تريسا اختارت الصمت، وأفسح لها المساعدون مكانًا تشاركهم الطعام،

فجلست تريسا على الأرض، وبدأَت تتناول الطعام بأصابعها القذرة وتصُبُّ الشوربة في الطاسة.

– إنني أفهم أحبابنا؛ فالمرء حين يكون منفعلًا، وبخاصة قبل الزواج، فإن معدتَه تتحرك كثيرًا. أضاف النجَّار وهو يضحك: إنه وسيم وغني ذلك الشابُّ الذي ستتزوَّجينه ... أليس كذلك؟ لم تملك تريسا فرصتَها في الإجابة حين استطرد بسرعة: يجب أن يكون كذلك؛ فهؤلاء مثلًا أبنائي، وكما تعرفين فإن الأبناء يرثون الآباء في كل شيء، وأنا كما ترَينَ لستُ وسيمًا ولستُ ذكيًّا أيضًا، ولو أنه كانت تُوجَد مدارس في أيامي لأصبحتُ ضابطًا، ولو أنَّ أولادي يملكون قَدْرًا من الوسامة والمال لتزوَّجوا سيدةً لطيفةً مثلك، لكنهم لو تزوَّجوا امرأةً دميمةً مثل أمهم لأصبح أولادُهم أسوأ منهم، إن المرء كما تعرفين لا يستطيع أن يحتفظ بالخط مستقيمًا فترةً طويلة، وحتى عند قَطع الخشب فإنه ينحني بطريقةٍ أو أخرى، فما بالك وخط عائلتنا ينحني منذ مدةٍ طويلة؟

بدأ يضحك ولم تكن تريسا تسمع.

قال أصغر المساعدين والذي يبلغ الثانية عشرة من عمره: أعتقد يا أبي أن ما قلتَه لا يبعث على الضحك إلى هذا الحد.

أنت لا تستطيع أن تفهَم الأشياء المضحكة؛ لأن رأسك مصنوعٌ من الخشب.

ضحك المساعدون الآخرون، وقال النجار: أخبرينا عن الرجلِ الذي ستتزوَّجينه.

أجابت تريسا ببرود: إنني أريدُ الخشب لأصنع منه تابوتَ والده. تساقَط الطعامُ من بعض المساعدين وفتح آخرون أفواههم كالتماسيح بينما علَّق النجار رأسه، وقال: إنني آسف يا ابنتي؛ فأنا كما قالت لي زوجتي كثيرًا أملكُ فمًا كبيرًا جدًّا، لكنني دائمًا كنتُ أردُّ عليها بأن أردافها أيضًا كبيرة جدًّا ... أنا لا أعرف ماذا أقول لكِ لكن الإنسان أحيانًا يُخاطِر بالكلام ... إنني آسفٌ جدًّا.

تأثَّرَت تريسا وقالت: أنتَ لم تُخطئ.

كانت الطريقة التي تحدَّث بها عن زوجته توحي أنه فقدها، ولا بُد أنه يفتقدُ أردافَها الآن.

رفع يد تريسا، وقادها إلى الجانب الآخر حيث الأثاث المتكوِّم عند الركن، وراحت تريسا تختلس النظر إلى صناديقِ الملابسِ المتكوِّمة فوق بعضها، والتي يُغطِّيها الفحم.

كان أصغر المساعدين يتبعُهما فقال وهو يجفِّف فمه: إنني آسف ... إن كلمة «مرفوض» كانت مكتوبةً هنا.

سألت تريسا النجَّار عما يعنيه الولد فقال النجار: رفَض شابٌّ ما أن يشتري لعروسه صندوق الملابس، فهجَرَته الفتاة، وتزوَّجَت من رجلٍ عجوزٍ اشترى لها الصندوق، ثم عاد الشاب وطلب من النجَّار أن يصنع له مجموعةً من صناديق الملابس كل واحدٍ منها أكبر من الآخر، وتم إرسالهم لهذه الفتاة كاعتذارٍ لكنها أعادتهم جميعًا.

قالت تريسا: أنا لا أملك نقودًا كافيةً للصندوق لكنني سأزرع بقولًا كافية في الموسم القادم، وعندئذٍ يُمكِنني أن أدفع لك.

أجاب النجار: لابد أنكِ تعتقدين أنني شخصٌ فظيع! لم تكن النساء في أيامنا تقلق بشأن دفن آباء أو أمهات أزواجهن، لكن العالم اليوم يسير على أذنيه ... لا ... اذهبي مع أولادي وسيُقدِّمون لك الصندوق؛ فأنا أبٌ كما أن أنثى الحيوانِ لا تُزعِج الأم التي تلعقُ أذنَ وليدها.

كانت تريسا تعبُر النهر، وتسير بصعوبة خلف الشباب الذين يحملون التابوت ... تذكَّرَت النقود التي بين أثدائها، فتناولَتها وألقت بها في الجدول الطيني، ثم مشت بهدوء خلف الرجال الذين راحوا يهزُّون رءوسهم تعاطفًا معها.

١١

قبل أن تصل إلى السور الذي يحيط بالكوخ سمعَت تريسا أنينَ الأولاد الذين يحملون الكفنَ الثقيل، ثم أبصرَت العَرق المتصبِّب فوق وجوههم ... وضعوا الصندوقَ على الأرض بجوار حفرةٍ كبيرةٍ وعميقة، ثم التقت عينا تريسا مع عينَي تانيا، الذي كان ممسكًا بورقة من أوراق الموز لحماية جدَّته من حرارة الشمس ... نظر إليها وكأنه يراها للمرة الأولى، ثم سلَّم ورقة الموز لجيمس، ومشى ببطء لمساعدة الشباب الواقفين بارتباكٍ إزاءَ ذلك الكفنِ الثقيلِ دون أن يقدر على إخفاء دموعه.

تلاقت نظراتُهما مرةً ثانيةً دون أن يتبادلا أي كلمة، بينما كانت نظراتُ الأقرباءِ المحيطين بالحفرة مثبَّتة في اتجاه تريسا، التي تناولَت ورقة الموز من جيمس، ومضت بصعوبةٍ نحو الجدَّة، ثم ركعَت إلى جوارها لحمايتها من الشمس الملتهبة.

كان الجو حارًّا، وبدت كاشا وانجا هادئة وكأن القرية كلها موجودةٌ حول الحفرة الكبيرة، وظل الجميع في انتظار قدوم ميلا، الذي ذهبَت أونيا لإحضاره لكنها لم تعُد، فساد القلقُ وشعَر بعضهم بالتعب من كثرة الوقوف، فلم يتردَّدوا في الجلوس فوق رمال التربة الباردة، التي استخرجوها من الحفر، أما الجدة فقد جلسَت كالحجَر دون أن تقول شيئًا، ولم تستطع التحرك من مكانها للاحتماء من حرارة الشمس التي أصبحَت فوق كتفَيها وقدمَيها، قدَّموا لها شرابًا من بيرة الذرة لكنها كانت ترفُضه في كل مرة، فتقدَّم ابن أخيها حاملًا طاسة البيرة التي تناولَتها تريسا هذه المرة، ووضعَتها بيدٍ واحدةٍ فوق شفتَي العجوز التي رفعَت عينَيها الضعيفتَين دون أن تهزَّ رأسها، وراحت تشرب البيرة وسط اندهاش الجميع.

فكَّر تانيا قائلًا: مَن سيتلو الكلماتِ الأخيرةَ إذا لم يأتِ ميلا؟ ... يا لها من معتقدات! إنهم يرغبون في سماع التنهُّداتِ الخرساءِ ليس لشيءٍ سوى للتخفيفِ عن أنفسهم.

كان ميلا قد سقَط على الأرض وهو قادمٌ بصحبة أونيا، فشعَر بألم في ساقه، ولم يستطع مواصلة السير حتى تصادف مرورُ شابَّين ساعداه على النهوض، وقاداه إلى مكان الدفن ... كانت أونيا تحمل ثلاثةَ أقداحٍ سوداء، فوضعَت واحدًا فوق ساق جدَّتها، وقدَّمَت القدحَين الآخرَين لتانيا، الذي تناولهما دون النظر إليهما، ثم ركعَت إلى جوار جدتها في الجانب الآخر، لمساعدة تريسا في الإمساك بورقة الموز.

جلس ميلا فوق المقعد في مواجهة الشمس الحارقة، بجوار براميل البيرة الثلاثة ذات الرغاوي الكثيرة، وقال: يا أم الأولاد، يا أبناء كاشا وانجا الذين تمتلئ بطونُهم الفارغةُ اليوم بالدموع ... نحن نجتمع هنا وأيادينا فارغة، وننظر بعينٍ واحدة إلى الحفرة في الأرض، وبالعين الأخرى نتطلع إلى الشمس ... بمقدورنا أن نبكي جميعًا، لكنكم تعرفون أن بكاء الصمت أكثر عمقًا، فلنَحترِس إذن ونبكِ بهدوء لأن الحجر لن يتأثر من ضربات الرأس، وليس بإمكاننا أن نُعيدَ الرجلَ الراقدَ هناك ... هكذا هي الحياة يا أبناء كاشا وانجا.

ظل ميلا يتحدث وهو يتطلع إلى اليمين وإلى اليسار، لمعرفة إذا ما كان عزاؤه قد خفَّف عن الناس أم لا، لكنهم كانوا ينظرون إليه ببرود وعداءٍ خاصٍّ حين بدأ في رش الملح والفلفل والبهارات هنا وهناك، وراح يستدعي تاريخ المُتوفَّى.

قال ميلا: إن المرء لا يستطيعُ الكذبَ أمام قبر المتوفَّى، وإذا كان الرجلُ قد أخطأ في حياته فلا بُد أن نذكُر الأشياءَ الحسنةَ التي فعلَها.

أبصَر الخوفَ مرتسمًا فوق وجوه الرجال، فأغلق عينَيه واستطرد بهدوء: في أحد الأيام الممطرة بغزارة اشتد البرق والرعد، وكان طفلٌ صغيرٌ يسير بجوار الشجرة في حالةٍ سيئة، فانطلَق هذا الرجل الذي يستريح الآن، وأمسَك الطفل وأنقذَه من موتٍ محقَّق ... هذا هو نوعُ الرجال الذي افتقدناه ... أوه يا أم الأولاد، لقد كان رجلًا شجاعًا وطيبًا.

لم يقدِّموا شيئًا للناس حول الحفرة سوى موزةٍ ناضجةٍ لكل شخص، فشَعَروا بخيبة أمل، وقالوا: هل هذا هو كل شيء؟ هل هذا هو كل شيء؟!

قال ميلا: اللعنة على كل شيء.

تذكَّر تانيا تلك الليلة المظلمة التي قابل فيها تريسا، فازدادت دقاتُ قلبه، وبدَت على وجهه علامات الحَيْرة حتى إن ملابسه التصقت بجسده، ليس بسبب حرارة الشمس، وإنما بفعل الغضب الشديد بداخله، والكراهية والمرارة التي يشعُر بهما تجاه أبيه ... ظل يرتعش وشفتاه تتحركان حين تذكَّر أنه لم يكره أيَّ شخصٍ في حياته قَدْر كراهيته لأبيه رغم آماله في التصالُح معه ... لقد تمنَّى تانيا أن يأتيَ والدُه في يومٍ ما ويناديَه قائلًا: تعالَ يا بني

لنجلس معًا ونتحدث سويًّا، لقد كان رأسي مشبعًا بالضوضاء؛ ولهذا كنتُ أتصرف كما رأيتَ لأنني أحمل حجرًا في كبدي.

لو أن تانيا سمع من أبيه كلامًا كهذا لغسَل أقدامَه بالدموع، واعتذَر للجميع شارحًا لهم كل شيء، ولكنَّ أباه راقدٌ الآن في الحفرة ميتًا.

أقسَم تانيا وهو ينظُر إلى الكفن: إنه والله لخداعٌ لعين!

ثم أضاف وهو يمسَح عَرقَه بأصابعه: إن أمك تجلس هنا بإذلال، وثمَّة رجلٌ بندوبٍ يثرثر بشفاهه المرتعشة كالطفل أو المراهق، في محاولةٍ منه لإزالة الرائحة العفنة التي تركتَها فوق الأرض ... إنك ها هنا في الأرض ستُلوِّث الخراء ... أين القوةُ التي كنتَ تتمتَّع بها ... أين هي الآن؟

كاد أن يُخبِر الحاضرين عن معاملة أبيه السيئة لأولاده وزوجته وأمه، ورَغِب في القول: دعونا نلقي به عند الدغل كالكلب لتأكله الضباع.

لكنَّ شيئًا ما منعه، ربما كان غضبه الشديد.

امتلأَت السماء بالسُّحب السوداء الغامضة حين شقَّت أونيا الجزء العلوي من فستانها، كما هي العادة، ولطَّخَت نفسها بتراب الحفرة، ثم تناولَت الأقداح وملأَتها، وقدَّمَت القدح الأول لجدَّتها والثاني لتانيا والأخير لميلا.

لم تشرب الأم من القدح كما ينبغي، وإنما بلَّلَت ريقَها فقط، ثم ناولَت القداح للآخرين من حولها وهي مرفوعةٌ فوق الأكتاف القوية للنساء الصغيرات حتى ارتوى آخرُ شخص، بينما ألقى ميلا قدحه في الحفرة، وكذلك فعَل تانيا دون أن يشرب شيئًا. تحرَّك ميلا بمقعده إلى جوار القبر دون أن ينهض، ثم ألقى بقطعةٍ من اللحم داخل الحفرة، وقال: والآن نحن نأكل سويًّا.

رشَّ قطراتٍ من البيرة، وأضاف: والآن نحن نشربُ سويًّا.

لم يبكِ أحدٌ أثناء نزول التابوت في الحفرة، وعند اصطدام صوت التابوت بالقاع أمسكَت الأم الضعيفة الأرض بأظافرها، وهزَّت رأسها، ثم دحرج تانيا الحجر داخل القبر، ووضع غُصنًا فوقه كعلامة.

قبل انتهاء طقوس الدفن كانت الأمطار قد هطلَت بغزارة، فسارع بعضُ الناس بالاختفاء تحت الأشجار وداخل الأكواخ، غير أن تانيا ظل كما هو ولم يُحاوِل تجنُّب الأمطار ... مشى ببطءٍ فاختلطَت الأمطار بالعَرق المتصبِّب من وجهه وجسده.

تساقطَت قطراتٌ كبيرةٌ من المطر ودوَّى الرعد في اتجاه الشرق، فازدادت همساتُ الناس، وكانت الشمس تُواصِل رحيلَها عن القرية وهناك — فيما عدا الركنَ الجنوبيَّ من كاشا وانجا — كانت السُّحبُ السوداءُ الكبيرةُ تُغطِّي السماء.

١٢

مضت الأيام بطيئةً مع تساقُط المطر الذي استمر مدةً طويلة، فراح الناس يبتهلون للسماء، وفي الصباح المبكِّر كان الرجال يقودون أبناءهم وزوجاتهم لبناء الأسوار الشائكة حول الأرض الجرداء، ومن كل مكانٍ في كاشا وانجا كان من اليسير رؤيةُ الأرض بلونٍ بنيٍّ مُحاطٍ بالأعشاب، حتى عند قبر والد تانيا؛ حيث بدأَت الأعشاب في الظهور.

اكتست الأرض باللون الأخضر لكن قطعة واحدة في كاشا وانجا ظلت أعشابها جافة وصفراء هي أرض أهل تانيا.

بعد مراسم الدفن مضت العائلة في سيرها كالنحل حين يتحرك إلى خليةٍ جديدة، ثم انسحبوا داخل أنفسهم، وأصبحوا منعزلين إلا من زيارات تريسا وجيمس، وتوقَّف الأولادُ عن اللعب، ولم يعُد بمقدورهم الحصولُ على الأعشاب الخضراء، فماتت البقرة كيبيا، وأصاب أونيا بعضُ الشرود، وأصبح لونها شاحبًا، وفقدَت كثيرًا من جمالها.

بدأ تانيا يشعُر بالقلق، ولم يفارقه إحساسُه الجديدُ بالمسئولية تجاه عائلته، ثم راح يفكِّر في ذلك الإشراقِ وتلك الأحاسيسِ التي انتابَتْه بمصاحبة تريسا، حتى أصبح يُصدِر أصواتًا غريبةً أثناء نومه فوق السرير الذي مات عليه والده، وفي كثيرٍ من الأحيان كان يجلس في الشمس أو تحت رذاذ الأمطار وهو يلعَب بالتراب أو الطين.

شعَر بخيانة شعب كاشا وانجا عندما أدرك أن الناس لم يأتوا يوم الجنازة إلا للسخرية من محنته، وتذكَّر عدم زيارة ميلا في الصباح التالي، وبينما هو جالس في الشمس يُراقِب دخانَ الأعشابِ المحترقةِ المتصاعدَ إلى عَنان السماء الزرقاء الجافَّة إذا بقلبه يخفق.

تساءل تانيا بينه وبين نفسه: ماذا ينبغي أن أفعل من أجل تلك الأفواه التي يجب أن تأكل؟

كان أسبوعُ الزرعِ قد بدأ، لكن فترة العزاء لم تنتهِ بعدُ، ومن العار أن يبدأ تانيا العمل أثناء هذه الفترة ... فكَّر في الخروجِ والبدءِ في تطهيرِ الأرض وزراعتِها، وبذلك يجلبُ الكراهيةَ والعارَ لنفسه ولعائلته لكنه شعَر بالخوف الذي لم يكن يتعلق بإلحاق العار بوالده الميت، وإنما الخوف من مزيد من العزلة ومقاطعة الناس في كاشا وانجا.

كان الأبُ الميتُ هو الذي جلَب العار للعائلة، فكان تانيا يرى الناس وهم ينظرون إلى الأرض البور، ثم يهزُّون رءوسهم بالشفقة، ففكَّر في حمل المنجل أو الفأس فوق كتفه، والذهاب للعمل في الأرض، لكنه كان متأكدًا من أنهم سيهزُّون رءوسهم، ويُشيرون بأصابعِهم قائلين: الولد لأبيه.

أبصَر تانيا أخته أونيا وهي تجري ناحيته حتى اقتربَت منه، وجلست إلى جواره لاهثة، والقلَق مرتسمٌ على وجهها.

فكَّر تانيا في جدَّته فنهض مذعورًا وقال: ماذا حدث يا أونيا؟

توقَّفَت أونيا لحظةً لالتقاط أنفاسها، وقالت: تريسا!

قال تانيا: لا ... إنها تزرع لنا الذرة.

ثم تنهَّد مستطردًا: سأذهب لرؤيتها.

كانت تريسا ترتدي رداءً مشدودًا بحزام حول خصرها وهي تقلب التربة بالفأس يمينًا ويسارًا، ومن خلف الشجرة الصغيرة أبصَر تانيا العَرق المتصبِّب فوق وجهِها وترابَ الأرض الذي يغطِّي قدمَيها، ثم راح يلوِّح لها، لكنها كانت مشغولةً بوضع الحبوب في التربة ... عاودَت العمل بالفأس دون أن يبدو عليها الشعور بالتعب، وكانت وهي تنحني وتحرِّك ذراعَيها وقدمَيها كأنها ورقةٌ في مهَب الريح.

شعر تانيا بالهزيمة والقهر أمام حماسها، وتلك الابتسامة فوق شفتَيها الساحرتَين ووجهِها الطفولي الذي لم يتأثَّر بالأحداث ومعاناة الأيام الأخيرة، فهمَس لنفسه قائلًا: هل من اليسير أن يسعَد المرء بعد طول معاناة؟! خفق قلبُه وشعَر بالسرور والقوة، لكنه ظل يتساءل عن قُدرة المرء الذي يملك القلب ويُعطي الكثير من أجل الآخرين.

طارد البعوضة بالعصا، ثم قال: إنها أيضًا حشرةٌ صغيرة، لكنها تصيب المرء بالملاريا. تنبَّهَت تريسا لضربات العصا ففزعَت لعُريها، ثم ألقت بالفأس جانبًا وأسرعَت بتناول القميص الكاكي من على الأرض لتغطِّي نفسها، واتجهت نحو تانيا وهي تُداري خجلها، كما يتحرَّك الماعز الصغير نحو الحطَب المحترق.

نَسِي تانيا أنه ما يزال في فترة الحداد، فضحك وهو ينظر إلى رقبتها الطرية المنحنية ... اقتربَت منه فتناوَل المنديلَ الملفوفَ حول رقبته، ومسَح به العَرق برقَّة من فوق رقبتها ووجهها دون أن يتوقف عن الضحك.

قالت تريسا: كان يجب أن تُعلِن عن نفسك؛ فقد كنتُ على وشك أن أرميك بحجر.

أجاب تانيا وهو يضحك: لا تُوجَد أحجارٌ هنا.

فقالت تريسا: يُوجَد بعوض.

شد تانيا وجهَه، وتظاهَر بالجدية خوفًا من التمادي في نسيان فترة العزاء، ثم سألها: ماذا تفعلين؟

فهمَت تريسا ما يعنيه، فوضعَت يدها تحت معدتها، وقالت برقَّة وهي تنظر إلى أسفل: هذا الرحم ليس جافًّا، ويُمكِننا أن نزرعَ مرةً في العام فقط، وإذا كنتَ أنتَ وعائلتُك لا تملكون أفواهًا لتناول الطعام فإنني أملك.

كانت يدُها ما تزال فوق رحمها حين نظرَت إلى بعيد، فشاركَها تانيا النظر في نفس الاتجاه، ثم استقرَّت نظراتهما عند انعكاس أشعة الشمس والدخان المتصاعد من الأرض ... حدَّقَت تريسا في وجه تانيا فأبصرَت قطعةً من الطعام فوق شفتَيه ولم تلحظ أية تجاعيد، فشعرَت بالانتصار والراحة، وبدا عليها السرور وهي تمسَح العرق من فوق جبينها.

سألها تانيا بسرعةٍ وصوتٍ خفيض: كيف سأشرح هذا؟

لم تجب تريسا وألقت بالكوفية من فوق جسدها ثم راحت تعزقُ الأرض مرةً أخرى دون تفكير في أجزاء جسدها العارية أمام تانيا، الذي حدَّق فيها لحظة دون أن يراها؛ فقد كانت قِطعٌ من الزجاج وبعض الجذور البيضاء تعكسُ أشعةَ شمسِ الظهيرة بقوة في اتجاه عينَيه.

هزَّ رأسه ومضى في طريق عودته، لكنه شعَر بألمٍ شديدٍ في قدمَيه، وعندما وصل ألقى بجسده إلى جوار جدَّته وهو ينفضُ الرمالَ من فوق ملابسه.

لم تُبصِر الجدة دموع تانيا المتدفقة من عينَيه، فقالت بشفاهٍ مرتعشة: أقسِم أن شمسَ هذه الأيام كالقمر تمامًا؛ فهي لا تبعث على الدفء.

أجاب تانيا بطريقةٍ آلية وهو يزيل العَرقَ والدموعَ من فوق وجهه: نعم ... إنها كذلك.

ثم تحرَّك نحو ظل الشجرة تجنبًا لحرارة الشمس.

قدَّمَت أونيا للمرأة العجوز طاسة الموز المهروس واللحم، ثم أبصرَت تانيا وهو يضع رأسه بين فخذَيه ويرسمُ بأصابعه فوق الأرض الرملية ... ناولَت الملعقة الخشبية لجدَّتها

دون أن تُجيبَ على أسئلتها وشكاواها ... قدَّمَت أيضًا لتانيا طاسةً صغيرةً بداخلها ملعقةٌ من الألومنيوم ذاتُ يدٍ مكسورة، وعندما رفع رأسه من بين فخذَيه عرفَت أونيا أنه كان يبكي، فانحنَت وتحسَّسَت أكتافه، بالطريقة التي تفعل بها عند ظهور فتاةٍ أخرى في حياته.

لم تستطع أونيا أن تكره تريسا؛ فقد أصبحَت واحدةً من العائلة تُشارِكهم الضيق والنقص والعزلة وعار الفقر، لكنها لم تستطع أيضًا أن تحبها كل الحب؛ لأنها كانت تغار منها ومن اهتمامها بتانيا، كما حدث بعد الجنازة بأيامٍ قليلة حين اعترض تانيا على طعام أونيا، فسارعَت تريسا بتسخينه مرةً أخرى بعد أن أضافت إليه مزيدًا من الزيت والملح، مما جعل أونيا تشعُر بأذًى كبيرٍ لم تستطع بعدَه سماعَ شكاوى جدَّتها المتكرِّرة ... تساءلَت أونيا: هل تستطيع أي امرأةٍ أخرى من نساء هذه الأيام أن تقوم برعاية العائلة كما أفعل أنا؟

ثم أضافت وهي تهمِس لنفسها: لكن زواج تانيا من تريسا يفتح الطريق أمامي لأتزوج.

كانت أونيا كلما شاهدَت رجلًا قوى البنية مثل موجيا تجلس تحت الشجرة، وتسرح بعيدًا بأفكارها، حتى عرفَت نوعًا جديدًا من المشاعر جعلَها تُعاني من القلق الدائم، وكثيرًا ما كانت شفتاها تهتزَّان، غير أنها لم تكن تعي تمامًا معنى هذا الشعور والشوق العميق تجاه موجيا، الذي رأته رجلًا مناسبًا ... راحت تتحسَّس صدرها وتزمُّ شفتَيها الناضجتَين، وشعَرَت بحُب أكثر تجاه تريسا التي أصبحَت سببًا نحو تحقيق رغباتها والمضي إلى مملكة الحرية المجهولة، بعيدًا عن عائلتها وعن لعنة بقائها بدون زواج.

همسَت لأخيها برقَّة وهي ما تزال تتحسَّس أكتافه: يجب أن تتوقَّف تريسا عن ذلك يا تانيا، إن الناس يضحكون علينا، يجب أن تُوقِفَها عن العمل في الأرض حتى لو عانَينا من الجوع حتى الموت ... ألا تتذكَّر نظراتِ الناسِ عندما كنا ندفن أبي؟ ألا تتذكَّر السخرية فوق الشفاه المجعَّدة؟ ... جرب أن تعمل على إيقافها ... لقد مضى أسبوعان فقط ومن يدري ما سيفعله الرب هذا العام؟ ... قد يتساقط المطر كما حدث من قبلُ، ولا تنسَ أن جدَّتنا ستموت إذا عَرفَت؛ لأنها ما زالت تعتزُّ بكرامتها ... لقد رأيتُها بالأمس حين استيقظَت في الليل المتأخر بعد أن اطمأنَّت أننا نائمون، ومضت ببطءٍ نحو الركن حيث تناولَت الكاوري Cowrie التي أخذَتْها من أمها وضمَّتها بين يدَيها، ثم ركعَت وقالت بصوتٍ عالٍ: «إلهي ... لم أكن أعرف أن الأمر سينتهي هكذا، فلتعمَل على إنهاء كل شيءٍ الآن لأنني تعبتُ.»

... لقد سمعتُها بنفسي، وحين عادت لتنام لم تستطع، وكانت تحك بطنها ... أرجوك أن توقفها يا تانيا من أجل جدَّتنا، وإذا لم تستطع فعليكَ بتكليفِ شخصٍ آخر لإيقافها.
قاطعَتْها الجدة قائلة: ما هذا الذي أسمعُه يا أونيا؟ ... هل تناوَل الأولاد طعامهم؟

أجابت أونيا دون أن ترفعَ بصرها من على تانيا: نعم ماما.

كان تانيا طوال الوقت ينظر إلى الأفق، وقد هبَّت نسمةُ هواءٍ طرية جعلَت حرارةَ بعد الظهر أكثر احتمالًا، وساعدَت في توصيل الرسالة ... انتقل بنظراته نحو أونيا وحاول أن يقول شيئًا، لكنه ما كاد يفتحُ فمه حتى أغلقه مرةً أخرى ... كانت أونيا ما تزال تتحسَّس كتفَيه، فمَد تانيا ذراعَه، وراح يُداعِب رقبتَها بيده، ثم تطلَّع كلٌّ منهما للآخر فتبدَّدَت مخاوف أونيا. همَس لها تانيا أن تُرسِل بعض الطعام إلى تريسا، فذهبَت بخفة بعد أن ملأَت طاسة تانيا مرةً أخرى.

تحرَّك تانيا من مكانه، وجلس بجوار جدَّته، وظل يساعدها في الإمساك بطاستها وتحريك الملعقة، وعند انتهاء طاستها الثانية صَبَّ لها من محتويات طاسته.

قالت الجدة العجوز: أعتقد أن يديَّ ترتعشان، فلا أستطيع التحكُّم في الإمساك بالملعقة، لكنه خطؤك؛ لأنكَ كنتَ توجِّهني.

قال تانيا: لقد كنتُ أداعبكِ يا أم الناس.

ضحكَت وقالت بهدوء: ليس من العدلِ أن تُداعبَ امرأةً عجوزًا لا تستطيع حتى أن ترى.

كانت تبحث عن أنف تانيا، الذي كانت تشُده منه حين يضايقها وهو ولدٌ صغير ... قدَّم لها تانيا أنفَه فشَدَّته منه وهي تضحك دون أن يشعر بالضيق؛ لأنه كان يعرف أنها تُحاوِل الترفيه عن نفسها من ثقل العَزاء.

شعَرَت العجوزُ ببعض الرضا، فقدَّمَت الشكر لتانيا وأونيا، ثم رقدَت فوق بطانيتها، وبدأَت تشكو من الشمس، وكان تانيا قد عاد إلى مكانِه وظل ينظُر إليها وهي تنام في مواجهة الشمس.

حضَر جيمس في المساء، وأخبر تانيا بضرورة مناقشة بعض الأمور الهامة، فسار كلاهما عَبْر الوادي حتى وصَلَا إلى منزل جيمس دون أن يتبادلا إلا القليل جدًّا من الكلمات.

تغيَّر منزل جيمس كثيرًا بعد نقله من مكتب الحكومة، وحل فانوس الكيروسين الاقتصادي محل المصباح، وبعض أشياءَ قليلة في حجرة الجلوس كانت جاهزة للبيع. أما الترابُ الذي يُغطِّي الكتب فقد زال بسبب الاستخدام، وربما بسبب عناية تريسا.

جلس الرجلان بوقار وقد وضع كلٌّ منهما كوعه فوق المائدة وكأنهما اثنان من الرؤساء يتفاوضان أثناء فترة وقف القتال.

دخلَت تريسا حاملةً إناء اللبن وسلَّمَت الرجلين الأباريق الخشب المليئة بالسائل الأصفر دون أن تقول شيئًا، ثم صبَّت لنفسها في فنجانٍ مكسور، وجلسَت فوق المقعد بجوار الحائط وهي تحرِّك الفنجان فوق ركبتَيها، ربما لأن الشاي باللبن كان ساخنًا، أو لأنها شعرَت بجدية اللقاء.

رشَف الرجلان من الشاي، وبعد فترةٍ طويلةٍ من الصمت قال جيمس: بارانيا ... لقد حصلتُ على وظيفة.

قال تانيا بدون إحساس: رائع ... أي نوعٍ من الوظائف؟

ثم فكَّر غاضبًا، وقال لنفسه: أهذا هو السببُ الذي استدعاني من أجله؟ ... لقد فشلتُ في العودة إلى عملي الأخير، وها هو جيمس يعود إلى وظيفةٍ أخرى ولم يمضِ على تركِه العملَ سوى أسابيعَ قليلة.

قاطعَه جيمس قائلًا: في الأيام الأربعة الأخيرة عملتُ محصلًا للضرائب في كاشا وانجا، وهو عمل ليس سهلًا ... أشار إلى الشعار النحاسي المستدير في جيب سُترته المعلَّقة فوق الحائط، ثم أضاف: ما إن يرى الناس هذا الشعار حتى يسارعوا بالاختفاءِ داخل أكواخهم، أو الهمسِ إلى زوجاتهم، كما لو أنني زائر من قريةٍ بعيدة، وما يضايقُني أكثر يا عزيزي هو ذلك العَداءُ الواضحُ في عيون الأطفال وهم يتعلَّقون بأقدام وملابس أمهاتهم ورؤية بطونهم المنتفخة ... إن نظراتهم تتهمُني بأنني المسئول عن خَواء بطونهم وكأني حيوانٌ متوحشٌ جئتُ لالتهامهم ... على أية حال فإن ذلك ليس هو ما استدعيتُك من أجله؛ لأنك أيضًا مسئولٌ عن كثيرٍ من الأطفالِ ذوي البطون الخاوية.

ملأَت تريسا قدَح جيمس مرةً ثانية، وأعادت تسخينَ قدَح تانيا، ثم عادت إلى مكانها دون أن تقولَ شيئًا.

تناول جيمس رشفتَين سريعتَين من الشاي، واستطرد: لقد أخبرَتْني تريسا عن كل شيء يا بارانيا، وأعتقد أنها تناسبُك تمامًا، لكنها لا تستطيع أن تزرع أرضك؛ ولذلك فسوف أستعين بفريقَين من الماشية لزراعة الجزء الشرقي من أرضي، وسيكون هذا الجزءُ لأهل بيتك، وسنقولُ إنك اشتريتَ الأرض مني مقابل العمل فيها لمدة سنة.

ساد الصمتُ إلا من أصواتِ الرياح التي كانت تهزُّ حديد السقف، وصدى أصواتِ الأطفالِ الذين يلعبون ويمرحون على بُعد أمتارٍ قليلةٍ من ناحية الشمال.

شرب تانيا الشايَ دون أن يبدُوَ على وجهه أيُّ شيء، فوضعَت تريسا يدها فوق ظهره، وملأَت له قدحَه بالشايِ الساخنِ باليد الأخرى، وبعد انتهائه من قدَح الشاي الثاني صافح جيمس بقوة، ونظر إلى تريسا دون أن يبتسم، ثم عاد لبيته في هدوء.

لم يكن جيمس يتوقع إجابةً سريعةً من تانيا ... نظر إلى المكان الذي كان يشغلُه تانيا منذ لحظاتٍ قليلة، ثم عاد إلى مكتبه وبدأ يحسب نقود اليوم.

قالت تريسا: تُصبِح على خير.

تناولَت جلد البقرة الذي ستنام عليه، وذهبت إلى كوخِ أم جيمس وثمَّة شعورٌ بفرحٍ كبيرٍ كان يتخلَّل قلبها وهي تُغَني بصوتٍ هادئٍ وتُدندِن في الظلام، بعد أن أطفأَت موقدَ الكيروسين، لكن بعض الصراصير وحشرات أخرى كانت تزحفُ عليها وتشغلُها عن فرحتها وأحلامها.

١٣

شعَرَت أونيا بالسعادة والرضا بعد أن طلب تانيا من تريسا أن تتوقف عن عَزقِ الأرض، ومضت الأيام بطيئةً دون أن يشعُر بها أحد، وما بين شروق الشمس ومغيبها ساد الملَل وسط عائلة تانيا طَوالَ أيام العَزاء المريرة، حتى إن الصغار كانوا حذرين في لهوهم وضحكاتهم، لكن الكبار حين توقَّفوا عن مراقبتهم راحوا يضحكون بأصواتٍ عالية، ويلعبون مع جدَّتهم وكأنهم لم يفقدوا أباهم.

مع مرورِ الأيامِ نسي الجميع فقدانَ الأب وكأنهم قد تطهَّروا بوفاته، وبدا وجه الجدَّة بعد العَزاء متلألئًا ومتعارضًا مع التجاعيد القديمة ... كانت تجلسُ سعيدةً في الشمس طَوال اليوم حتى ينام الدجاج تحت أشجار الموز، ثم تمدِّد أطرافها قرب النار التي يصنعون فوقها وجبة العَشاء، وتحرِّك أصابعَ يدَيها وقدمَيها نحو اللهب إلى أن تمتلئ بسواد الفحم ... كانت تشعُر بمزيدٍ من السعادة والرضا بعد تناوُل طعام الموز.

كانت أونيا تقلِّدها أحيانًا، فتضحك الجدة بينها وبين نفسها، ثم تذهب للنوم وعلى شفتَيها ابتسامةٌ متردِّدة.

تغيَّرَت أحوالُ الجميع إلى الأفضل، وبدت وجوههم مضيئةً ما عدا تانيا، الذي أصبح أكثر نحافةً وخشونةً واكتسى وجهُه ببعض التجاعيد، وبعد انتهاء فترة الحداد ظل يعمل بجدٍّ طَوالَ اليوم، ويبني الأسوار حول الأرض تمهيدًا لزراعتها، وانتهى بمساعدة أونيا من عملِ صومعةِ غلالٍ للموسم القادم ... لم يكن يتحدث إلى أي شخص، وبعد الانتهاء من عمله كان يعود لعائلته، ويجلس بجوار أخيه الصغير وهو يحدِّق في النار حتى يتم إعداد الطعام، ثم يُهرَع إلى النوم دون أن يقول شيئًا لأحد.

ظل تانيا هكذا في موسم الزرع أيضًا، فبدا كئيبًا وسط إخوته، الذين رأَوا فيه نسخةً مطابقةً من أبيهم، ثم أصبح لزامًا عليه أن يتوجَّه لزيارة تريسا وجيمس، وهناك كان يجلس

عاقدًا أصابعه لا يدري شيئًا عن اضطراب وغيظ تريسا من صمته، وغضب وتساؤلات جميس عن السبب في زيارته.

استمر تساقُط الأمطار أيامًا كثيرة، واشتدَّت أصوات الرعد والبرق التي سرعان ما كانت تُعاوِد دويَّها بعد توقُّفها لحظاتٍ قصيرة، فاستقبلَت الأرضُ وابلَ الأمطار بشغف، ورفَع الناسُ أياديهم المفتوحة تعبيرًا عن الشكر والامتنان، وتمايلَت أغصانُ الأشجار لتأخذَ نصيبَها الكافي من الماء، وفي بداية الأمر تجاهَل الصغارُ ألعابَهم، وراحوا يُحدِّقون بعيونٍ متسائلةٍ من فتحاتِ الأبوابِ ومن الشقوقِ إلى تلك الأمطارِ الغريبة، ثم يتهامسون: أليس هذا عجيبًا؟!

مع مُضي الأيام تجرَّدوا من ملابسهم، وخرجوا يلعبون في الماء ويقذفون بعضهم بكُراتِ الطين وهم يصرخون ويلعنون بعضهم بغضب بريء، ولكن أونيا في ذلك الوقت كانت تجد صعوبةً في فهم ثرثرة جدَّتها وأحزان أخيها، وذاتَ يومٍ ألقت الصغيرةُ كرةً من الطين أصابت بها عينَ أحد الأولاد، فانتقم منها بتلطيخ وجهها بالطين، وظل كلاهما يتربَّص بالآخر حتى سنحَت الفرصة للولد، فوضع الطين في فمها وأنفها وعينَيها، وما كان من «مواتا» إلا أن ضربَتْه بقوة في بطنه، بينما كانت أونيا واقفةً ويداها فوق خصرها، فراحت تتحسَّس قطراتِ المطرِ فوق رقبتها، ثم أصدَرَت لهم الأمر بالتوقُّف، وعندئذٍ اصطحَب الأطفالُ الكبارُ «مواتا»، وغسَلوا وجهَها بالماء النظيف.

انحنَت أونيا وملأَت يدَها بالطين وألقت به في فمها، ثم بصقته على الأرض، ولم يكن من اليسير رؤية التلال الغربية، أو الإحساس بملابسها الملتصقة بجسدها بطريقةٍ فاضحة … شعرت أونيا بالأرض حولها وكأنها تلهث بحياةٍ جديدة، وعندما توقَّفَت الأمطار بعضَ الوقتِ مخلفةً وراءها بردًا شديدًا استطاعت أن ترى التلال الغربية عَبْر القرية، وبدا لونُ الأرض جديدًا وكأنه عامٌ جديد وحياةٌ جديدة.

مضت نحو قطعة الأرض التي زرعَت فيها بذور الذرة وهي تحلُم أن تراها مثمرة، وفي الطريق مرَّت بجوار قبر أبيها، فأبصرَت الأعشابَ الخضراءَ فوق القبر، والتقَطَت أحد هذه الأعشاب كما يلتقط المرء وردة، ثم واصلَت المسير.

كانت بذور الذرة قد أثمرَت فشدَّت واحدةً منها، وأمسكَت بها في نفس اليد التي التقطَت بها العشب الأخضر من فوق قبر أبيها، ونظرَت إليهما وقد لاحظَت ذلك الاخضرار اللامع واللون الأصفر الملطَّخ بالطين، ثم فتحَت يدَها وألقت بهما إلى الأرض المبلَّلة، وعندئذٍ شعَرَت بأن شيئًا ما يتحرَّك داخلها … تحسَّسَت ثديَها وبطنَها فارتعش جسدُها، وشعَرَت

بالإحباط حين تذكَّرَت تانيا وحالتَه التي لا تُوحي بأي تقدُّم، فقالت لنفسها: «سوف أهرُب بعيدًا ... سوف أهرب إلى أي مكان ... ربما أهرب إلى المدينة حيث أستطيعُ أن أجدَ عملًا ... أي نوعٍ من العمل، كما لو أنني اعتنيتُ بنفسي قليلًا، وتعلَّمتُ اللغة السواحلية أكثر لاستطعتُ أن أتزوَّج رجلًا متعلمًا، وأنجب منه أطفالًا.»

كانت أونيا تهزُّ قبضة يدها وتبكي، حتى لم يكن من اليسير معرفةُ إذا ما كان السائلُ النقيُّ فوق خدَّيها متدفقًا من عينَيها أم من المطر.

عندما عادت إلى البيت كانت جدَّتُها تكرِّر بغضب: سوف أموت.

لم يكن تانيا موجودًا؛ فلا بُد أنه عند جيمس، وكان الصغارُ بعد أن تصالحوا يلعبون عند الكوخ الشمالية غيرَ مبالين بالأم العجوز ... ركعَت أونيا إلى جوار جدَّتها ووضعَت مزيدًا من الخشب في النار، ثم غطَّت نفسها جيدًا، وقالت: لا ... يا أمي ... سوف تعيشين هذا الموسمَ وكثيرًا من المواسمِ الممطرةِ الأخرى.

لم ترُدَّ عليها المرأةُ العجوزُ لأنها لم تسمعها، أو لأنها لم تُصدِّق كلماتِها، فشعَرَت أونيا عندئذٍ بذنبٍ كبير، لمجرد أنها فكَّرَت في الهرب وهَجْر عائلتها، وظل يُطارِدها هذا الإحساسُ بالذنب حتى انعكس في نوعيةِ وكميةِ عَشاء تلك الليلة ... في طريقها للنوم أقسمَت لنفسها ألا تترك العائلة أبدًا حتى لو وجدَت الرجل الذي تحلُم به؛ لأنها في حاجةٍ لجدَّتها تفوقُ حاجةَ جدَّتها لها، ولأن وجودها لا يجعلُها تشعُر باليتم ...

... مضت كالطفلِ الخائفِ من الرعدِ الهادرِ بالخارج نحو سريرِ جدَّتها في الظلام، ووضعَت يدها فوقَ كتفِ العجوزِ المليءِ بالعظام، وظلت تُربِّت برفقٍ عليه حتى نامت بجوارها.

وصل تانيا إلى منزل جيمس في ذلك المساء الصاخب بالرعد فأبصَر تريسا جالسةً بمفردها فوق العتبة، وقدماها ممدَّدتان فوق الأرض المبلَّلة بماء المطر ... كانت شاردةَ الذهنِ وهي تصنع سلةً من أوراق الموز ... ارتعشَت بشدة، وأصابها التوتُّر أكثر مما حدَث لها حين رؤية تانيا أول مرة في بيت ماريا، ولم تتحرَّك من مكانها وتُفسِح له الطريق للدخول تجنبًا للأمطار، لكنه عرف طريقَه، ولم يكن جيمس بالداخل.

جلس تانيا بجوار المائدة وهو يعبث بأصابعه، بينما تُواصِل تريسا عمل السلة من أوراق الموز ... فتح تانيا فمَه ثم سارع بإغلاقه؛ فلم يكن يعرف ما يريد أن يقول أو كيف يقول، وكذلك حاولَت تريسا، لكنْ كلاهما لم يفعل حتى مضى وقتٌ ليس بقليل ألقت تريسا بعده بالسلة في المطر ومشت نحو تانيا، ثم وقفَت أمامه دون أن تلمسَه أو تبتسم، وبعد

أن حدَّقَت فيه بعضَ الوقت وضعَت يدَها فوق ركبته، واستدارت حتى أصبحَت في مواجهة المطر ... ركَّزَت نظراتِها فوق عتبة الباب وقالت لتانيا بصوتٍ عالٍ: ما هو مصيرنا؟

اهتزَّ جسد تانيا، وأفاق من أحلامه التي ظلت تُلاحِقه طَوال الأسابيع الماضية، لكنه لم يدرك ما تعنيه تريسا، وحين كرَّرَت سؤالها أجاب: أوه ... لا أعرف، لكنني أعتقدُ أنه نفسُ الشيء الذي يحدُث لكل الناس.

لم تكن إجابةً كافيةً بقَدْر ما كانت إعلانًا عن وجوده، لكنه شعَر ببعض الذنب، فاستطرد: سوف نتزوَّج في أسرعِ وقت.

استدارت تريسا مرةً أخرى فأصبحَت في مواجهته، ولم يكن وجهُها يُوحي بالسرور، قالت والدموع تتعانق فوق رموش عينَيها ببطءٍ وألَم: أنا لا أعني ذلك.

وماذا تعنين إذن؟

لا أعرف ... لا أعرف كيف أشرح الأمر؛ لأنك قد لا تفهمني ... لقد حلَمتُ بالحياة معك، لكن الأمر يبدو الآن وكأنني لن أحصُل على شيءٍ سوى الحياة الكئيبة في منزل ماريا.

ابتعدَت عنه، ثم عادت إلى مكانها فوق العتبة وقد بدا عليها الهدوءُ والراحةُ بعد أن انتهت من كلامها.

تحرَّك تانيا وجلس بجوارها، ثم وضع يده فوق رقبتها وقال: لا أفهم ما تقصدين! لم تكن قادرةً على مقاومة لمساتِه حين قالت: لم أستطع أبدًا أن أفهم الآخرين، ولم أعُد قادرةً على فهم نفسي، ولكن.

توقفَت ثم قالت: ماذا حدثَ لك يا تانيا؟ لماذا تسعى إلى تدمير نفسك وتدميري، ثم تلقي باللوم على الآخرين؟ ... لقد مات والداك مثلما يموت كل الناس، ولقد فقدتَ وظيفتَك وتفكِّر دائمًا أنك ابنٌ غيرُ شرعي و... لكن كل هذه الأشياء وأكثر منها حدثَت للآخرين دون أن يعملوا على تدمير حياة الآخرين ...

لماذا يا تانيا خاصةً وأنك رجلٌ كامل؟

دسَّت وجهها في صدره، فتدفقَت دموعها رغمًا عنها حتى وصلت إلى بطنه، ثم أضافت: إنني في حالة انتظارٍ دائم ... كل يوم بعد عودتي من الحقل أظل في انتظارك يا عزيزي لأسمعَ منكَ شيئًا واحدًا جميلًا ... كلَّ يوم أنتظر مجيئكَ لتقول لي بأنك تُحبني أو تحتاجني ... كان من اليسير في منزل ماريا أن أواصِلَ تلك الحياةَ البغيضةَ لأنني لم أكن أعرف سواها، لكنكَ جئتَ وعلَّمتَني أشياءَ أخرى ... علَّمتَني الحب، وها قد مضت أيامٌ كثيرةٌ حتى أثمَرَت بذورُ الذرة التي قمتُ بزراعتها، وأصبحَت تُلامِس خاصرتي، وأنت ما تزال تتحركُ وتحومُ حول المكان كالشبح ... أرجوك لا تدمِّرني ... أرجوك!

كانت الدموع ما تزال تتدفَّق من عينَيها لكنها شعَرَت بالراحة والهدوء، فطلب منها تانيا أن تجلس إلى جواره، ثم قال بهدوءٍ بعد لحظاتٍ من الصمت: كل شيء كان يبدو عبثيًّا، وكانت محاولةً لمعرفة الحُلم من الواقع ... يا إلهي ... أنتِ تعرفين بأنني أحبكِ أكثر من أيِّ شيءٍ آخر يا تريسا، لكن الرجل حين يُعاني من الجربِ في ظهره فإنه يستخدم الملعقةَ التي يأكُل بها في حكِّ ظهره، أما أنا فقد كنتُ أحاوِل حكَّ الجربِ لكنني لم أستطع تحديدَ مكانه، وربما لا أستطيع ذلك أبدًا.

قالت تريسا وهي تربِّت فوق ظهره: دعني إذن أحُك لك ظهرَك.

أضاف تانيا وكأنه لم يسمعها: أعتقد أنه في يومٍ ما لا بُد أن نُدمِّر بعضُنا بعضًا، ولا أقصد أنا وأنت فقط وإنما كل العلاقات الإنسانية، التي تؤدي مباشرةً بطريقةٍ أو بأخرى إلى الدمار والخراب مثلما تؤدي الحياة إلى الموت؛ فنحن يا عزيزتي نملك بذرة الدمار داخلنا، ونعمل على انتشارها كالمرض، وهكذا فعل أبي حين التقَط هذه البذرة من مكانٍ ما ونقلَها لي كي أنقلَها بدوري لكِ وهكذا ... لا يقلقني أنني ابنٌ غير شرعي أو أنني فقير لكنه شيءٌ آخر أكثر عمقًا، أكثر عمقًا بكثير! ... إن شيئًا ما بأعماقي هو سببُ كل هذه الأعراضِ وأنتِ على حقٍّ فيما يتعلق بأنني لستُ الوحيد الذي يعاني، حتى إن بعضَ الناسِ اعتاد هذه المعاناة، وبعضهم الآخر يُحاوِل التخفيف عن نفسه بأشكالٍ مختلفةٍ كما تفعلين أنت، وثمَّة آخرون يضربون رءوسهم في الحائط مثلي، ويقرِّرون كما قرَّرتُ أنا الآن، إلقاءَ أنفسهم في بِركة الحياة القَذِرة التي لا يستطيعون تنظيفها.

لم تفهم تريسا كلَّ ما قاله تانيا، وربما لم يفهم تانيا نفسُه ما كان يتحدث عنه، لكنها فهمَت تمامًا تلك الأحاسيسَ وذلك الارتجافَ بين أحضانه، فرفعَت بصرَها وعدَّلَت من نفسها، ثم راحت تجفِّف دموعها من فوق عينَيها ومن فوق صدر تانيا كالطفل الصغير، وأوشكَت أن تقول قولًا جميلًا، كما بدا في حركات شفتَيها، لكن حضورَ جيمس وبصحبته ماري جعلها تتوقَّف.

كان جيمس يحمل سلةً كبيرةً فوق كتفه، فقال وهو يُحاوِل تنزيلها: لن أسبِّب لكما أي قلق؛ فإنني أيضًا مشغول.

قفزت تريسا لمساعدته في تنزيل السلة الثقيلة، وقالت: حقًّا ... من ... من؟

أجاب جيمس: لا داعي للعجلة؛ لأنكِ ستعرفينَ في الوقت المناسب.

كان جيمس مخمورًا، ويبدو عليه السرور أكثر من أي وقتٍ مضى ... وضع يده فوق كتف تانيا وقال: بارانيا ... يجب أن تسعد لأجلي اليوم، لا بُد أن تسعد لأجلي.

ثم هزَّ إصبعه أمام تانيا، وراح يرقص رقصةً خفيفة، وقال بصوتٍ مخمور: إنني سعيدٌ جدًّا اليوم، وإذا لم تشاركني «سعادتي» فسوف أحطِّم رأسك ... دعنا نحتفل باستقلال «ياكامباث» مع هذه السلة ... أعتقد أنه اليوم ... أليس كذلك؟ لم يسمع كلٌّ من تانيا وتريسا عن ذلك الاسمِ الغريبِ من قبلُ، لكنهما قالا وهما يضحكان: بلى.

ثم نظَر كلاهما للآخر وازدادت ضحكاتُهما حتى إن الدموع تساقطَت من عينَي تانيا من شدة الضحك على ذلك البلد الغريب الذي نال استقلاله، فبدا وكأنه كان يدَّخر ضحكاتِه منذ زمنٍ طويل ... هُرعَت تريسا إليه خوفًا من أن يكون قد أصابَه شيءٌ لكنه توقَّف، وحين التقَت عيناه بعينَي تريسا ضحك من جديد.

توقَّف تانيا أخيرًا عن الضحك، وقطَّب وجهه، فلاحظَت تريسا اختفاء الطيَّات الثلاثِ فوق حاجبَيه ثم همسَت له: لا داعي لأن يُدمِّر كلانا الآخر يا حبيبي.

وقف تانيا وقال: اللعنة ... لا داعي لذلك، وافتحي زجاجة البيرة.

بدءوا يشربون على شرف «ياكامباث»، ثم قال تانيا بعد أن شرب زجاجةً كاملة: إنه ليس الاحتفال باستقلال هذا البلد بالتأكيد، فبأي شيء تحتفل يا بارانيا؟

هل ارتفع راتبك؟

قال جيمس وهو يُداعِب رغوة البيرة بلسانه وقد بدا مخمورًا تمامًا: لو أنني امرأةٌ لكان لي خمسةٌ من الأبناء غير الشرعيين الآن.

ضحكوا جميعًا وقالوا: نعم ... بالتأكيد.

حاول جميس أن يتَّسِم بالجدية لكنه لم يستطع إخفاء الابتسامة الصغيرة التي كانت تطفو فوق أحد أركان فمه، ثم قال: لا ... يا بارانيا فلقد قابلتُ اليوم — أثناء جولاتي الضريبية — امرأةً عجوزًا دعَتْني لمشاركتها في تناول الذرة بالفول السوداني على الغَداء، وكما تعرف أنني لم أَعِش هذه الحياة من قبلُ ... إنها ياتانيا، أرملةٌ ذات أقدامٍ متورمةٍ بداء الفيل، ولا تستطيع أن تتحرك، لكنها سعيدةٌ جدًّا ... لقد جعلَتني أرى الحياة من جديد، وأشعُر بالمتعة التي افتقدتُها، وعندئذٍ قدَّمتُ لها وعدًا بأن أهبها جزءًا من راتبي كل شهر ... لقد عرفتُ أن هناك كثيرًا من الأشياء تستحق أن يحيا الإنسان من أجلها، فلماذا يا عزيزي يُبدِّد كلٌّ منا نفسه في الشكوى الدائمة من أشياء تافهة، مثلما تفعل بعض النساء الناضجات اللاتي يمتنعن عن مضاجعة الرجال ثم يقدِّمن الشكوى من عدم الإنجاب؟ ... إن تلك المرأة العجوز تعيش حياةً بسيطةً وسعيدةً لأنها لا تملك شيئًا، وهكذا قرَّرتُ أن أتزوَّج وأنجب أطفالًا، وهذا هو ما أحتفل به.

ضحكوا مرةً أخرى، وكانت البيرةُ قد أدارت رءوسهم جميعًا، لكنهم لم يتوقَّفوا عن الشراب، حتى لم يعُد جيمس قادرًا على التماسُك.

نهض تانيا وقال متجاهلًا تريسا: وأنا قرَّرتُ أيضًا الزواج، لكنني لا أطمح في الإنجاب، رغم أن الطرف الآخر يطمح في ذلك.

ابتسمَت تريسا ونظرَت إلى الأرض كي تُداريَ خجلَها.

قال جيمس وهو في الطريق إلى سريره: لماذا لا تنامُ هنا الليلة؟

أجاب تانيا: لأنني لو نمتُ هنا وأنا مخمورٌ فإن شخصًا ما سوف يعاني ... طابت ليلتكم.

ثم اختفى في الظلام.

لاحقته تريسا بنظراتها، وبعد أن اختفى تمامًا شعَرَت به داخل قلبها، فقالت وهي تمضي لتنام في كوخ المرأة: طابت ليلتُك يا حبيبي، ولتعتنِ بنفسك.

١٣٣ كان الحصاد وفيرًا في ذلك العام، وكانت النباتاتُ الخضراءُ تغطِّي كل مكان، وتتمايل مع الرياح، وكذا كانت أشجارُ الموز التي مالت حتى اقتربَت من الأرض بعناقيدها الخضراء الطازجة، والكاسافا، وأيضًا البطاطا التي تشقَّقَت فوق سطح الأرض، فسادَ الفرحُ في كل أنحاء كاشا وانجا، وامتلأَت قلوبُ الأمهات والآباء بالبهجة، لكنهم كانوا خائفين من الإعلان عن فرحتهم وبهجتهم قبل أن يصل الحصادُ إلى أماكن التخزين، خشية أن يهجُم الجرادُ أو الطيورُ الغريبة على المحصول فتنتَشر الأمراضُ ويفسَد ذلك المحصولُ الوافر.

فرح الصغار ولمَعَت وجوههم، كما اتسم شجارُهم بالعنف بسبب بطونهم المليئة بالذرة المغلية والموز ... ظلوا يأكلون الذرة كما يأكل السنجاب حبَّات الفول السوداني، وعندما كان التعبُ يصيبهم من كثرة الطعام كانوا يمضغونَه أو يصنعونَ منه كراتٍ يتقاتلون بها، ثم يعودون إلى بيوتهم في المساء قانعين سُعداء، فيرتمون فوق حجر أمهاتهم، ويقولون: نريد أن نشرب يا ماما.

كانت الأمهاتُ تبتسمن بمزيدٍ من الرضا؛ فلا شيء في كاشا وانجا يبعَث على الفرح أكثر من بطنٍ مستدير ومليء بالطعام.

أصبحَت الليالي هادئةً في كاشا وانجا بعد أن توقَّف الصغار عن اللعب، وظل الشباب يتطلَّع بقلقٍ نحو الشمال خوفًا من قدوم الجراد، ونحو الشرق خوفًا من الرياح الحمقاء،

لكن شيئًا لم يحدث، وساد الأرضَ هدوءٌ غريب، وفي كل مكانٍ من كاشا وانجا كان الناس يتهامسون في انتظار موسم الحصاد.

مضت الأيام فأثمرَت بذور الذرة، ولم يعُد ثمَّة احتمالٌ لهجوم الجراد، فراح الشبابُ يقارن أحجام الموز والفاكهة وحبات الذرة، ويقول كل واحدٍ منهم: إن التي معي أكبر حجمًا.

ثم يضحكون وقد تلاشى الخوفُ تمامًا.

امتزج قلبُ تانيا أيضًا بخليطٍ من الفرح والخوف، لكنه بعد أن أصبح مشغولًا ببناء كوخ زفافه لم يجد الوقت الكافي للتفكير في ذلك الخليط ... كان يضع الطين فوق الحوائط الخارجية للكوخ حين شعَر بالفرح أكثر من أي شيءٍ آخر، وتذكَّر فجأةً أنه لم يعُد يفكِّر في أبيه إلا في المرات القليلة التي زار فيها قبرَه الأخضَر، وعرف بينه وبين نفسه أن خطوبة أونيا وجيمس كانت سببًا كبيرًا في إحساسه بالفرح.

ذاتَ يومٍ كان تانيا وتريسا يُزيِّنان سقف الكوخ المصنوع من القش حين تذكَّر تانيا أباه، وقال: شيءٌ غريب ... أليس كذلك؟ شيءٌ غريبٌ ألا يحدُث حصادٌ بهذه الوفرة على مدى أجيال في كاشا وانجا إلا بعد وفاة أبي!

قالت تريسا: لا تفكِّر هكذا يا تانيا؛ فليست هناك علاقةٌ بين موت أبيك وحصاد هذا العام.

لم يكن تانيا قد سمع شيئًا حين استطرد: حتى ذلك الغُصن فوق قَبره قد أثمَر.

قالت تريسا بقلق: ماذا تعني؟ ولِمَ لا يثمر؟

أجاب تانيا: لا أعرف ... هاتي السكين.

وكانت هي المرة الأخيرة التي تناوَلَا فيها هذا الموضوع.

١٤

بعد موسم الحصاد يشعُر الناس بالشبع فلا يهتمُّون كثيرًا بحضور حفلات الزفاف أو طقوس العزاء؛ لأنهم ليسوا في حاجة لوجبات الذرة واللحوم والبيرة التي يقدِّمونها في الأفراح والمآتم. وهكذا كان زفاف تانيا وتريسا هادئًا، لم يتجاوز الحاضرون فيه عشرين شخصًا، فشعَرَت تريسا بالأسى الشديد، وتسلَّق الحزنُ قلبَ تانيا حين أبصَر زوجةَ ميلا جالسةً فوق مقعد جدَّته، التي ماتت منذ أسابيع قليلة أثناء نومها.

لم يتأثَّر أحدٌ بموت الجدَّة، كما لم يقدِّم أحدٌ العزاء فيها، لكن الناس في كاشا وانجا كانوا يقولون: إنها امرأةٌ محظوظة؛ فقد كانت بلا خطيئة.

شعَر تانيا بفقدانها وهو يُعاوِد النظر إلى مقعدها، وتمنَّى لو أنها موجودةٌ حتى لو بدأَت تشكو مرةً أخرى من حرارة الشمس.

بدأ الناس يُغادِرون المكان واحدًا تلو الآخر مخلِّفين وراءهم هداياهم من الماشية والماعز والدجاج، مع تمنِّياتهم بأجمل الأمنيات.

شعَر تانيا في البيت الجديد بالعذوبة والانتعاش، وظل يفكِّر مع تريسا فيما سيفعلانه من الآن فصاعدًا ... لم تكتمل فرحة تريسا تمامًا لعلمها أن تانيا يعرف بأنها ليست عذراء، وأنها بلا أهل يأتون في الصباح التالي لذبح الماعز من أجلها، كما أنها شعَرَت بالضيق خشيةَ ألا تقدر على إشباعه، لكن تانيا كان قويًّا حتى إنها زعقَت من أعماقها: شيءٌ جميل ... الحياةُ جميلةٌ جدًّا.

عرفَت تريسا شيئًا آخر، وقدَّم العالَم نفسَه أمام عينَيها المغمضتَين في صورةٍ جديدةٍ متعددةِ الألوان، وراحت تردِّد طَوالَ تلك الليلة قائلة: إنها بدايةٌ طيبة.

وكان تانيا يكرِّر مرةً تلو الأخرى: نعم ... إنها بدايةٌ طيبة.

ولم تكن تريسا تشعُر بالرغبة في الاغتسال كما كانت تفعل في بيت ماريا، كما لم تُحسَّ طعمَ المرارة أبدًا في فم تانيا عندما كانت تنام في سلام.

مضت الأيام بفرحٍ، ثم تمثَّلت أفراحُهما بعد ذلك في العمل وتناوُل الطعام معًا، وبعد وقتٍ ليس بطويلٍ أصبحا مثلَ كلِّ أزواج الدنيا، وبدأ تانيا يشعُر بالتعب.

فرح كلاهما مرةً أخرى عندما تزوَّجَت أونيا من جيمس، فمضت الأيام سريعةً ومتلاحقة، وتحوَّلَت أرض كاشا وانجا إلى اللون البني مرةً أخرى، فأصبح لزامًا على تانيا أن يُواصِل عملَه في الحقل بجد، بينما كانت تريسا في البيت تقوم بأعمال الغسيل والطهي في انتظار عودته كل يوم.

كانت تطهو له الطعام باهتمامٍ وحُب بالغَين، وعندما يكون اللحم قليلًا كانت تقدِّم للصغار قِطعًا صغيرة، وتكتفي هي بالشم فقط، كي تحتفظ بالنصيب الأكبر لزوجها، الذي يعود للبيت بجبينٍ مليءٍ بالعرق ... كانت تريسا تقدِّم له الصينية الخشبية، وتجلس إلى جواره وهو يأكل، وعندئذٍ تُحِس بالرضا الكامل، لكن تانيا كان يطلب منها أحيانًا أن تشاركه الطعام، فكانت تدَّعي أنها تناولَت طعامَها رغم الجوع الذي تُحِس به.

كان تانيا يأكل ويشرب إلى حد الشبع، ثم يمضي ليستريح قليلًا في الشمس بعد أن يقول لها: شكرًا يا ماما.

عاد للبيت ذات يومٍ فلاحظ أن تريسا أكثر سعادة من أي وقتٍ مضى، ولم تكن تلك السعادة بسبب ترقية جيمس وذهابه للعيش مع أونيا في مدينةٍ كبيرة، أو بسبب الطرد الذي تركَه جيمس لتانيا، والذي يحتوي على بنطلونَين وقميص، وإنما كانت سعادة تريسا بسبب شيءٍ آخر أدركه تانيا بسرعة، فوقف على أصابعِ قدمه وظل يصيح، ثم مضى نحوها وأمسَك رأسَها بيدَيه المليئتَين بالعَرق، وقال بهدوء: لقد أنقذتِ حياتي يا حبيبتي. أشعُر الآن بالتحقُّق، وأمسِك بين يدي الآن ما لا أستطيع أن أفهَمَه.

نظرَت تريسا إليه ولم تقُل شيئًا، ثم بكت بشدة ونظرَت إلى الأرض، لكن تانيا رفع رأسَها مرةً أخرى، واتجه ناحيةَ الغرب، إلى لا مكان في اتجاه الشمس الغاربة.

كان يُراقِب بطن تريسا وهو يكبر يومًا بعد يوم بنظراتٍ خجلةٍ كما يُراقِب الطفل حبَّات الفول التي زرعها ... عرفَت تريسا أنه يُراقِب بطنها المستدير، فأصبحَت تنظر إليه نفس النظراتِ الخجولة، حتى التقت نظراتُهما ذاتَ مرةٍ ففهم كلاهما الآخر وراحا يضحكان.

أنجبَت تريسا ولدًا، فأطلق عليه تانيا اسم «تيرينيا»، وكان يدعوه بالمنتقم ... تبادَل العناية به مع تريسا، وعاشا معه لحظاتِ نمُوه بنفس الفرح والقلق الذي عاشا به لحظاتِ نمُو بطن تريسا.

اقتربَت ملامحُ الطفل من ملامحِ أبيه، فأبصَر تانيا صورةَ أبيه في وجه ابنه وعينَيه وأذنَيه، ثم ذهب إلى قبره المهجور؛ حيث ركع فوق الأعشاب الناعمة، وقال وهو يبكي بمرارة: أبي ... سامحني؛ فلقد أخطأتُ في حقكَ خطأً كبيرًا ... سامحني أرجوك.

عاد إلى البيت بعد زيارة قبر أبيه فكانت تريسا تلعب مع المنتقم.

أشار إليه تانيا، لكن الطفل هزَّ رأسه، وجرى نحو أمه.

ضحك تانيا وقال: هكذا هي الحياة ... إنها مثل الدائرة.

اقتربَت تريسا من زوجها حاملةً الولد فوق ذراعَيها، ثم ركعَت إلى جواره، وقالت بقلق: ماذا تعني؟

داعَب تانيا أرضيةَ الكوخِ الناعمة، ووضع يدَه فوق كتفها، ثم قال: انظري إلى إصبعي ... إنني أبدأ هنا.

رسَم بإصبعه دائرةً فوق الأرض البنية الناعمة، وأضاف: وها أنا ذا أنتهي من حيث بدأتُ تمامًا، وهكذا هي الحياة.

لم تفهم تريسا شيئًا، لكنهما تبادلا الضحكات بينما كان المنتقم نائمًا، فحملَته تريسا ووضعَته فوق السرير.

هنـــداوي